الفصل الثالث: العدول عن التشابه اللفظي للتناسب اللفظي والصوتي

أولاً : العدول عن التشابه للتناسب اللفظي

ثانياً : العدول عن التشابه للتناسب الصوتي

ثالثاً : العدول عن التشابه لتناسب الفواصل

الفصل الثالث: العدول عن التشابه اللفظي للتناسب اللفظي والصوتي:

لم يتعرض المتكلمون على الإعجاز لما في المتشابه اللفظي من تناسب لفظي وصوتي متميز، وإنما تكلموا على ذلك في عموم القرآن الكريم، فاتفقوا على أنه راعى في ترتيب كلماته ورصف حروفه التناسب بين أصواتها مراعاة محكمة، مما جعل له إيقاعاً فريداً؛ يستعذبه - إذا قرئ القراءة الصحيحة - قارئه وسامعه، فهمه أو لم يفهمه[1]. واتفقوا أيضاً على أن أي إخلال بذلك الترتيب لكلماته وحروفه، بنقص أو زيادة أو إبدال أو تقديم أو تأخير، يذهب حلاوته وعذوبته في حس السمع وذوق اللسان، ويخل بإيقاعه وتناسب نغماته[2].

والحاصل مما اتفقوا عليه أن القرآن الكريم راعى في نظمه وضع كل عنصر لفظي أو صوتي فيما يناسبه من نسق لفظي وجرس صوتي، ولذلك عدل عن التشابه، فأوقع كلاً من المتشابهين موقعه الأخص به الأنسب له، وهذا مدرك محسوس لدى من صفا ذوقه من حفظة القرآن الكريم؛ فقد حكى مصطفى صادق الرافعي أن صبيان المكاتب - وكان منهم - كانوا يستعينون بهذا التناسب على اتقاء ما يعرض لهم من تداخل بين الآيات المتشابهات، وأنه لم يكن يبين لهم مواقع الكلمات المتشابهة إلا نظام كل كلمة من آيتها [3].

ولا يقتصر العدول عن التشابه على مراعاة تلك الصورة الإيقاعية من التناسب اللفظي والصوتي، فثمة صور أخرى لها قدر كبير من الأهمية في إعجاز القرآن، لأنها أسرار من تناسبه المعجز، لم يكشف عنها إلا أصحاب توجيه المتشابه، ولم يُكشف لهم عنها إلا بالعدول عن التشابه، مما يؤكد تميز العدول بما بيناه في مقدمة الفصل السابق من التنبيه على التناسب المعجز، وكونه أقوى في الدلالة عليه، وكونه أمثل مجال تطبيقي لإيضاحه وكشف أسرار الإعجاز البياني.

---

(١) انظر تفصيل ذلك عند الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب: ٢: ٢١٢ حتى ٢١٨، ودراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم: ١٠١ حتى ١٠٦، والزرقاني، مناهل العرفان: ٢: ٣٥٨ حتى ٣٦٢، والبوطي، د. محمد سعيد، من روائع القرآن: ١١١- ١١٢، و ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) انظر: الطوفي، الإكسير: ٩٥، والزركشي، البرهان: ٢: ١١٨- ١١٩، والرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب: ٢: ٢١٧، والبوطي، د. محمد سعيد، من روائع القرآن: ١٤٤.

(٣) انظر: الرافعي، تاريخ آداب العرب: ٢: ٢٤٢ - ٢٤٣.

وقبل أن نشرع في التطبيق نستحسن الإشارة إلى أمرين؛ الأول أننا سنرتب الأمثلة هنا على صور التناسب اللفظي والصوتي مع مراعاة أنواع العدول العامة في أثنائها بقدر ما تسعفنا المادة؛ لأن هذا كما سيتضح أجدى هنا من الترتيب على أنواع العدول الذي كان أجدى في الفصل السابق وأجرى معه. والثاني أننا سنبدأ بدراسة مراعاة العدول للتناسب اللفظي ونُقفّي بالتناسب الصوتي، ونعقبهما بتناسب الفواصل؛ لأنه ـ وإن كان يندرج تحتهما ـ ذو أهمية خاصة في الإيقاع القرآني تقتضي إفراده عنهما .

أولاً : العدول عن التشابه للتناسب اللفظي:

يعدل القرآن عن التشابه مراعاة لصور متنوعة من التناسب اللفظي، أبدت لنا المادة أربعاً منها؛ تناسب المشاكلة، وتناسب الموافقة، وتناسب المطلع والختام، وتجنب ثقل تكرر اللفظ. ومع أن هذا العدول قد يراعي صورة واحدة في موضع وأكثر من صورة في موضع آخر، فإننا نؤثر تتبع مراعاته لكل صورة على حدة، لانفراد كل منها بخاصة متميزة من التناسب؛ مقصودة بالعدول، مما يتيح كشف أسرار هذا التناسب المراعى به على نحو أوضح.

وجدير بالتنبيه أن بعض أمثلة هذه الصور متداخل، ولا مناص من ذلك، وإنما الذي يحدد وضع المثال في هذه الصورة أو تلك هو آية العدول.

أ - العدول عن التشابه لتناسب المشاكلة اللفظية:

لا نريد بالمشاكلة هنا مفهومها الخاص المشهور الذي هو ذكر الشيء باسم غيره لوقوعه في صحبته[1]، وإنما نريد بها مفهومها العام الذي يشمل كثيراً من أوجه التناسب اللفظي كالتجانس والاشتقاق[2]، بل سنطلقها هنا لتشمل كل لفظين متناسبين؛ تَقارَب شكلهما أو تماثل، اختلف معناهما أو اتفق، خلافاً لبعض أهل البلاغة الذين قيدوها باختلاف معنى اللفظين إذا كان شكلهما واحداً[3]، ووفاقاً لأصحاب توجيه المتشابه الذين لم يتقيدوا بهذا الشرط[4].

---

(١) انظر: السيوطي، الإتقان: ٢: ٩٣٠، والجندي، علي، فن الجناس: ١٩٨، ومطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢١، وأبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٢٥٥.

(٢) انظر: أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٣) انظر: الخطيب التبريزي، كتاب الكافي: ١٩٩ - ٢٠٠، ومطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢٢.

(٤) انظر على سبيل المثال: درة التنزيل: ٤١٣، وملاك التأويل: ٢: ٦١٢، وكشف المعاني: ٣٢٣ و ٣٥١.

ولتناسب المشاكلة هذا خاصة نغمية أو إيقاعية، لأنه يشترط فيه التقارب بين المتناسبين؛ كوقوعهما في حدود البيت الواحد[1]. وسنجعل معيار هذا التقارب ظهور النغم، ولا سيما أن المتناسبين قد يكونان جملتين مما يجعل النغم ظاهراً في حدود الآيتين أو الثلاث.

وبالجملة فإننا نريد بتناسب المشاكلة عموم التناسب اللفظي القريب الذي تبرز فيه الخاصة النغمية أو الإيقاعية، وهو أبرز صور التناسب اللفظي التي يعدل القرآن عن التشابه مراعاة لها.

أ- العدول بالمبدلات:

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وفيها أيضاً ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وفي سورة الزمر ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [2] [الزمر: ٣٥] فقد عُدل عن التعبير بـ ﴿مَآ﴾ في الأُوليين إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ في سورة الزمر.

وقد أشار الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرماني - إلى أن مناسبة ذلك العدول هي المشاكلة في الاسم الموصول في سياق كل من المتشابهات الثلاث، لأن سياق آيتي النحل عُبر فيه عن الاسم الموصول بـ ﴿مَآ﴾ فجاء التعبير ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ﴾ مشاكلاً لذلك، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[3] [النحل: ٩٥ - ٩٦].

وزاد الخطيب الإسكافي أن وقوع ﴿مَآ﴾ في آية النحل الثانية مناسب لـ ﴿مَنْ﴾ التي افتُتحت بها الآية في قوله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

لأن «من» و «ما» يقترنان في باب الشرط والموصول[4].

---

(١) انظر: الخطيب التبريزي، كتاب الكافي: ١٩٩، ومطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢٢.

(٢) تقدم في العدول بالمبدلات اللفظية المتقاربة.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٤٠٧، والبرهان: ٣٢٢.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٤٠٧.

والأظهر من ذلك هو أن التعبير بـ ﴿مَآ﴾ في آية النحل الثانية أنسب لأنه به تتشاكل هذه الآية مع التي قبلها، قال تعالى:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦- ٩٧].

إضافة إلى المشاكلة في ألفاظ الاسم الموصول التي ذكرناها سابقاً ﴿إِنَّمَا﴾ و﴿مَا عِندَكُمْ﴾ و﴿مَا عِندَ﴾.

أما آية الزمر فعُبر عن الاسم الموصول في سياقها بـ ﴿ٱلَّذِى﴾، فاقتضت المشاكلة العدول عما وقع في آيتي النحل إلى ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟﴾ كما أشار الخطيب الإسكافي وتابعه عليه الكرماني، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1] [الزمر: ٣٥].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المائدة ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] وفي السورة نفسها أيضاً ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] [المائدة: ٦٨] فقد عُدل عن التعبير بـ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ إلى ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

ومناسبة ذلك هي مشاكلة كل من المتشابهين لختام الآية السابقة له، فختام الآية السابقة لأولهما قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] .

فجاء قوله تعالى رداً على موسى عليه السلام في ختام الآية التالية:

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] .

أما المشابه فختمت الآية السابقة له بقوله تعالى في سياق خطابه لرسولنا ﷺ :

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٠٧، والبرهان: ٣٢٢.

(٢) انظر: ابن الجوزي، فنون الأفنان: ٤٣١.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]

فاقتضى إحراز التناسب العدول إلى ما يشاكل هذا الختم في الآية التالية؛ أي آية المشابه، فقال تعالى:

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] وفي سورة يونس ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [(١)] [يونس: ١٠٧] فالعدول عن ﴿يَمْسَسْكَ﴾ إلى ﴿يُرِدْكَ﴾.

والتناسب في آية الأنعام ظاهر في مشاكلة ﴿يَمْسَسْكَ﴾ الثاني لـ ﴿يَمْسَسْكَ﴾ الأول. ولما جاء في تتمة آية يونس ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ اقتضت المناسبة العدول إلى ﴿يُرِدْكَ﴾ لما بينهما من مشاكلة لفظية.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سبع سور ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٨٧، وهود: ١١٠، والمؤمنون: ٤٩، والفرقان: ٣٥، والقصص: ٤٣، والسجدة: ٢٣، وفُصّلت: ٤٥] وفي سورة غافر فقط ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [(٢)] [غافر: ٥٣] فعُدل عن ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ إلى ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾.

و«الهدى» هو «الكتاب» نفسه في بعض الأقوال، وفي بعضها: الدلائل التي أوردها موسى عليه السلام على فرعون وقومه. وأياً كان، فإن الظاهر أن مراعاة التناسب اللفظي هي التي اقتضت انفراد آية غافر بالعدول عما وقع في مشابهاتها، لأنه وقع فيما تلاها ما يشاكل لفظ ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، وهو ﴿هُدًى﴾ في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣ - ٥٤].

ومن أمثلة العدول بالمبدلات من أسماء الله تعالى قوله عز وجل في ثلاث سور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ويونس: ٦٠، وغافر: ٦١] وفي سورة النمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ

---

(١) انظر: درة التنزيل: ١١٢، وملاك التأويل: ١: ٢٩٥ - ٢٩٦، و[illegible]، المعاني: ١٥٧، والعقد الجميل: ٦٢.
(٢) انظر: العقد الجميل: ١٥.

لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [1] [النمل: ٧٣] فعُدل عن الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ إلى اسم الرب ﴿رَبَّكَ﴾.

وقد وقع التعبير بالاسم الأعظم في الآيات الثلاث لمشاكلة ما في سياقها من التعبير به، ففي سورة البقرة:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الآيات [البقرة: ٢٤٢ - ٢٤٥].

وفي سورة يونس:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يونس: ٥٨ - ٦٠]

وفي سورة غافر:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الآية [غافر: ٦١].

أما آية النمل المشابهة فوقع التعبير في سياقها بالربوبية، فاقتضى إحراز التناسب العدول عما وقع في الآيات الثلاث من التعبير بالاسم الأعظم إلى التعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٣ - ٧٤].

ومن أمثلة العدول بالمبدلات الحرفية قوله تعالى في سورة الحج ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] وفي سورة لقمان ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [2] [لقمان: ٢٢] فعُدل عن اللام إلى ﴿إِلَى﴾.

---

(١) انظر: السابق: ٣١.

(٢) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٩٦.

والتعبير باللام في آية الحج لمشاكلة التعبير به في عدة مواضع من سياقها، ولا سيما تلك التي جاء فيها مزيداً على أصل الكلمات زيادة واضحة، وكذلك في كونه جاراً للفظ «الله»، قال تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤١].

فلم يرد في هذا السياق الحرف «إلى» كما هو واضح، على حين جاء في عدة مواضع من سياق آية لقمان المشابهة، فاقتضت مراعاة التناسب أن يُعدل فيها إلى التعبير به، قال تعالى:

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢١ - ٢٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي الرعد وفصلت ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الرعد: ٣، وفصلت: ١٠] وفي النمل ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾[1] [النمل: ٦١] فعُدل عن الجر بـ «في» إلى الجر باللام.

أما الجر بـ «في» فلمشاكلة التعبير به في آيتي الرعد وفصلت، ففي آية الرعد قوله تعالى: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الآية [الرعد: ٣].

وفي آية فصلت قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ الآية [فصلت: ١٠].

---

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٢١٦، وقد اكتفى بآيتي النمل وفصلت.

فالمشاكلة واضحة في الآيتين . أما آية النمل فخلت من حرف الجر «في»، ووقع في سياقها ما يقتضي المشاكلة في اللام مع الهاء؛ وهو «لها» من «خلالها»، فكان الأنسب لذلك أن يُعدل عن التعبير بـ ﴿فِيهَآ﴾ إلى ﴿لَهَا﴾، قال تعالى:

﴿أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [النمل: ٦١].

ولو عُبّر في هذه الآية بـ ﴿فِيهَآ﴾ لما تحقق التناسب.

ومن أمثلة العدول بالمبدلات الصيغية قوله تعالى في سورة البقرة ويوسف وغافر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ويوسف: ٣٨، وغافر: ٦١] وفي سورتي يونس والنمل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١) [يونس: ٦٠، والنمل: ٧٣] فعُدل عن الإظهار إلى الإضمار.

ومناسبة ذلك كما نبه الخطيب الإسكافي والكرماني وابن جماعة هي مشاكلة هذه المتشابهات لما تقدمها من آيات، بيد أنهم لم يوجهوا آيتي البقرة ويوسف. أما آية غافر فنبهوا على أن الإظهار فيها محمول على الإظهار في الآيات التي قبله، وهي قوله:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢) [غافر: ٥٧ - ٦١].

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٤١٢، والبرهان: ٢١٧ و ٣٢٥، وملاك التأويل: ١: ٤٩٥، وكشف المعاني: ٣٢٣، والعقد الجميل: ٣١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤١٣، والبرهان: ٣٢٥، وكشف المعاني: ٣٢٣.

ويمكن توجيه آية يوسف بنفس الوجه الذي نبهوا عليه في آية غافر، لأن الإظهار فيها للمشاكلة، ولكنه محمول على الآية التي بعده لا قبله، قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف [٣٨- ٤٠].

أما العدول إلى الإضمار في آية يونس فنبهوا على أنه لمشاكلة ما تقدمه من الإضمار في قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

وبعد هذا بأربع آيات جاء قوله في الخامسة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1] [يونس: ٦٠].

ومع أن الفاصل بين هاتين الآيتين أربع آيات فإنه لم يطل، لأنه مؤلف من آية قصيرة جداً وأخرى قصيرة واثنتين متوسطتي الطول؛ مما يسمح باستشعار التناسب الإيقاعي ولو على ضعف.

وأما العدول في آية النمل فنبه الكرماني على أنه لمشاكلة الإضمار في قوله تعالى:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] [النمل: ٦١].

وهو حسن، بيد أن هذا تناسب بعيد لا يسمح بالإحساس بالتناسب الإيقاعي، لأن الفاصل هنا يزيد على عشر آيات. والمناسبة القريبة التي تمكّن من ذلك، والتي روعيت بالعدول، هي مشاكلة الإضمار في قوله ﴿صُدُورُهُمْ﴾ في الآية التي تليها، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٣ - ٧٤].

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٤١٣، والبرهان: ٢١٧ - ٢١٨، وكشف المعاني: ٣٢٣.

(٢) انظر: البرهان: ٢١٨.

فلو أُظهر هنا فقيل «ولكن أكثر الناس» لاختل التناسب، وكذلك في آية يونس لو كان التعبير فيها بالإظهار لفات التناسب، مما يؤكد أن العدول لمراعاة المناسبة اللفظية كما كان التعبير بالإظهار فيما شابه الآيتين لهذه المراعاة.

وقد نظر زكريا الأنصاري في تلك المناسبة التي أبداها مَنْ أحلنا عليهم، وأبدى وجهاً مخالفاً، فقال مبتدئاً بآية البقرة: «إنما ذكر لفظ الناس هنا وفي يوسف والمؤمن، وتركه في يونس والنمل، لأن ما في الثلاثة الأولى لم يتقدمه كثرة تكرر لفظ الناس فناسب الإظهار، وما في يونس تقدمه ذلك فناسب الإضمار لئلا تزيد كثرة التكرار، وما في النمل تقدمه إضمار الموحى إليه ومخاطبته فناسب الإضمار. وبعضهم أجاب بما فيه نظر فتركته»[1].

ومراده بـ «المؤمن» سورة غافر. والحق أن النظر فيما أبداه هو لا فيما أبداه الخطيب الإسكافي وغيره، لأن التناسب فيما أبدوه وفيما استدركناه عليهم أظهر، أما ما أبداه هو من أن الإضمار في يونس لمناسبة ما تقدمه من كثرة تكرار لفظ الناس، فتناسب يصح مع التكرار المتقارب المستقبح في الكلام، أما مع المتباعد فلا، والتكرار الذي في يونس من المتباعد، فقد تكرر اللفظ في الآيات [٢، ٢، ١١، ١٩، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٤٤، ٤٤، ٥٧، ٦٠]، ولو صح أن الإضمار لمناسبة عدم زيادة كثرة التكرار، لكان المناسب في آية البقرة التي جاء فيها الإظهار أن يقع فيها اللفظ مضمراً أيضاً، لأنه تقدمها - بخلاف ما ذكر زكريا الأنصاري - رحمه الله - كثرة تكرار للفظ الناس، بل ما تقدمها من هذه الكثرة المتباعدة يفوق ما تقدم آية يونس، ويكفينا في الدلالة على ذلك الإشارة إلى مواضع التكرار في حوالي ستين آية متقدمة على آية البقرة [٢٤٣] لتكون بقدر الآيات الستين التي تقدمت آية يونس، فتلك المواضع في الآيات [١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٨٩، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٣، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٤٣، ٢٤٣]. وبهذا يتضح أن الأوجه والأظهر في التناسب الذي راعاه العدول هو ما نبه عليه الخطيب الإسكافي وغيره من المشاكلة اللفظية، وأن النظر هو في الوجه الذي أبداه زكريا الأنصاري لا فيما نظر فيه من توجيههم.

---

(١) الأنصاري، زكريا، فتح الرحمن: ٦٢ - ٦٣.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة يونس ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] وفي سورة النحل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥] وفي سورة الروم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[1] [الروم: ٢٣] فما في يونس والروم ﴿لَآيَاتٍ﴾ بالجمع، وعُدل عنه إلى الإفراد ﴿لَآيَةً﴾ في النحل.

أما آية يونس فالتعبير فيها بالجمع مناسب من حيث كان أكثر ما وقع في السورة من هذا التعبير مجموعاً، فقد وقع كذلك سبع مرات، ووقع مفرداً ثلاثاً[2]، وكلها بعيد عن الآية الموجهة، وأقربها إليها مفصول عنها بثلاث آيات، وهو في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية [يونس: ٧١].

فالمناسبة هنا لا تدخل في المشاكلة على شرطنا إلا على ضعف، للتباعد بين المتناسبين، ولكنا أردنا مجرد الإشارة إليها لاقتضاء توجيه العدول ذلك.

وأما آية الروم فالتعبير فيها بالجمع مناسب للتعبير به في صدور الآيات التي اكتنفتها وفي خواتهما، قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [الروم: ٢٠ - ٢٥].

فالمشاكلة في ذلك بينة، ولا سيما في الختام، لأنها تجاوزت الكلمة إلى النمط ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ﴾ ومراعاة لهذه المشاكلة النمطية عُدل عن التعبير بالجمع إلى التعبير بالإفراد في آية النحل المشابهة، قال تعالى:

---

(١) انظر: العقد الجميل: ٣١ - ٣٢.

(٢) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ١٠٤ - ١٠٥.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:[٦٥ - ٦٩].

فلو وقع التعبير في آية النحل المشابهة تلك بالجمع ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ لاختل التناسب اللفظي وضعف إيقاع المشاكلة، مما يؤكد أن العدول لمراعاة ذلك التناسب كما كان الجمع مناسباً في آيتي يونس والروم المشابهتين.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وفي سورة هود حكاية عن شعيب عليه السلام ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [1] [هود: ٨٥] فعُدل عن ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ إلى ﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾.

أما ما عُبر به في الأنعام فجار مجرى القاعدة العامة في القرآن، لأن كل ما فيه من الأمر بإيفاء الكيل وارد بلفظ المصدر «الكيل»، كقوله في سورة الأعراف ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] وفي الإسراء ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإسراء: ٣٥] وفي الشعراء ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٨١].

ولم يُعبَّر باسم الآلة ﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾ إلا في آية واحدة تقدمت آية هود المشابهة، فاقتضت المشاكلة بين الآيتين المتتاليتين العدول إلى التعبير بـ ﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾ في الآية المشابهة، قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ .. ..﴾ الآية [هود: ٨٤ - ٨٥].

---

(١) انظر: العقد الجميل: ٨٠.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بواسطة الزوائد والنواقص اللفظية لمراعاة المشاكلة قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٢] وفي سورة النحل ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [1] [النحل:١١٤] فعُدل عن نقص ﴿نِعْمَةَ﴾ إلى زيادتها.

قال أبو حيان في سورة النحل: «ولما تقدم ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١١٢] جاء هنا ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١١٤]، وفي البقرة جاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢] لم يذكر من كفر نعمته فقال ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]»[2]. أي أنه ليس في آية البقرة ما يستدعي المشاكلة بزيادة ﴿نِعْمَةَ﴾ فكان النقص مناسباً، ولما وقع في سياق آية النحل ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ ناسب العدول عن التشابه إلى الزيادة، لما بين ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ و ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ من المشاكلة اللفظية، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٢ - ١١٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩] وفي سورة الزخرف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨] فعُدل إلى زيادة ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في الزخرف.

أما آية الأعراف فلم يقع في سياقها ما يستدعي المشاكلة بالزيادة اللفظية، فكان النقص أنسب.

---

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ١٦٩.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط: ٥: ٥٤٤، وما وضعناه بين قوسين هو في الأصل مما ، والآية كما ذكرنا.

وأما آية الزخرف فوقع فيما تقدمها ما يشاكل لفظ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ وهو قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، فناسب العدول إلى زيادة ذلك اللفظ، قال تعالى:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧ - ٦٨].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون:٧٩] وفي سورة الملك ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1] [الملك: ٢٤] فعُدل إلى زيادة الفعل ﴿قُلْ﴾.

ومناسبة ذلك هي مشاكلة كل من المتشابهين لما في سياقه، لأن آية المؤمنين وقعت بين آيتين كل منهما مفتتحة بـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾، فحُملت الآية على ذلك، فلم يناسبها إلا نقص ﴿قُلْ﴾، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴾ ﴿وهو الذي يحيي ويميت ....﴾ الآية [المؤمنون : ٧٨ - ٨٠].

أما آية الملك المشابهة فتقدمها آية مفتتحة بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾، فاقتضت مراعاة التناسب العدول إلى زيادة ﴿قُلْ﴾ في الآية المشابهة ليكون افتتاحها مشاكلاً لافتتاح ما تقدمها، قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٣ - ٢٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴿٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٠] وفي آية أخرى مشابهة من السورة نفسها ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[2] [آل عمران: ٩٨] فعُدل إلى زيادة الفعل ﴿قُلْ﴾.

---

(١) انظر: العقد الجميل: ١١٢.

(٢) انظر: السابق: ٤٢.

ومناسبة ذلك هي مشاكلة كل من المتشابهين للآية التي بعده، لأن الأول افتتحت الآية التي بعده بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فكان نقص ﴿قُلۡ﴾ منه مناسباً ليتشاكل افتتاح الآيتين، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ .. ..﴾ الآية [آل عمران: ٧٠ - ٧١].

أما المشابه فافتتحت الآية التي بعده بـ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ﴾ بزيادة ﴿قُلۡ﴾، فاستدعى تناسب المشاكلة اللفظية بين الآيتين العدول عن التشابه بزيادة ﴿قُلۡ﴾، قال تعالى:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ .. ..﴾ الآية [آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وفي سورة المائدة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ [1] [المائدة: ٦١] فعُدل إلى زيادة ﴿كَانُواْ﴾ في المائدة.

أما آية آل عمران فليس فيها داعية مشاكلة للفظ ﴿كَانُواْ﴾، فكان نقصه أنسب.

وأما آية المائدة المشابهة فتلاها آيتان في ختام كل منهما ﴿كَانُواْ﴾ مقترناً بـ ﴿مَا﴾، فاقتضت مراعاة المشاكلة اللفظية بين هاتين الآيتين وآية المائدة المشابهة العدول عن التشابه بزيادة ﴿كَانُواْ﴾، قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦١ - ٦٣].

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص الحرفية قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النحل: ٧٠] وفي سورة الحج ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ١٧٦.

أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1] [الحج: ٥] فعُدل عن نقص ﴿مِّن﴾ إلى زيادته.

ومناسبة ذلك كما نبه أبو جعفر بن الزبير أنه لم يرد في آية النحل ما يستدعي زيادة الحرف[2]، قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

أما آية الحج ففي سياقها ما يستدعي العدول إلى تلك الزيادة ليقع تناسب المشاكلة في النظم كما نبه أبو جعفر وبيّن في قوله: «سبب ذلك - والله أعلم - التناسب والسياق وتشاكل النظم ومراعاة اللفظ، ألا ترى إلى تكرر من في قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

فقد تكررت لفظة من في هذه الآية في ستة مواضع؛ الخمسة منها قبل قوله ﴿بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ والواحدة بعدها، وكلها محرزة معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾، إذ النظم مع سقوطها ملتئم والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمها، فاستدعاها سياق آية الحج للتشاكل والتناسب المرعي في النظم. ولم يكن في آية النحل ما يستدعيها؛ إذ لم تقع في شيء من كلم الآية، فوردت حيث اقتضاها سياق النظم، ولم ترد حيث لم يرد ما يقتضيها»[3].

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٦٨ - ٢٦٩، والبرهان: ٢٤٦، وملاك التأويل: ٢: ٦١١ - ٦١٢، وكشف المعاني: ٢٢٩ - ٢٣٠، والعقد الجميل: ١١١.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦١٢ - ٦١٣.

(٣) السابق، والصفحة نفسها، وقد وضعنا من التي قبل نطفة في الآية بين قوسين إشارة إلى سقوطها من الأصل.

وكان الكرماني قد أشار باقتضاب شديد إلى قريب مما ذكره أبو جعفر، ولكنه اكتفى بتوجيه آية الحج، فقال: «قوله تعالى ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ﴾ بزيادة ﴿مِّن﴾، لقوله ﴿مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [الحج: ٥] الآية»[1].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧١] وفي سورة الأنفال ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[2] [الأنفال: ٢٩] فعُدل عن زيادة ﴿مِّن﴾ إلى نقصه.

قال الكرماني مكتفياً بتوجيه آية البقرة: «في هذه السورة بزيادة مِنْ موافقةً لما بعدها، لأن بعدها ثلاث آيات متواليات فيها من على التوالي، وهو ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ ثلاث مرات»[3] وهذه المرات الثلاث في آيتين لا في ثلاث، والمهم أن الزيادة في الآية لمشاكلة ذلك اللفظ، وثمة مرات غير تلك متقدمة على الآية، وجملة هذه وتلك في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٠ - ٢٧٣].

أما آية الأنفال فلم يقع في سياقها لفظ «من» فزال المقتضي اللفظي المناسب لزيادته، فعدل في هذه الآية إلى نقص «من».

---

(١) البرهان: ٢٧١.
(٢) انظر: السابق: ١٤١.
(٣) السابق: ١٤١ - ١٤٢.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة القصص حكاية عن موسى عليه السلام ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [القصص:٣٧] وقال في آية مشابهة من نفس السورة في سياق خطابه لرسوله محمد ﷺ ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [1] [القصص: ٨٥] فعُبر في الأولى بالباء ﴿بِمَن﴾، وعُدل عنه في الآية المشابهة إلى نقصه فقيل ﴿مَنۡ﴾.

والتعبير بالباء هو الأصل هنا كما ذكر الكرماني، لأن أفعل التفضيل لا يتعدى إلى المفعول إلا بالجار[2].

أما التعبير بذلك الأصل في الأولى فمناسب لما وقع في سياقها من التعدية بالباء، قال تعالى:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٣٥ - ٣٧].

وقوله ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الأصل فيه «ونجعل لكما بآياتنا سلطاناً» أي أنه عُدّي به «نجعل»، وقيل غير ذلك[3]. ومع أن هذا التناسب أدخل في المشاكلة الصوتية فالإشارة إليه هنا مطلوبة لتتضح مناسبة العدول في الآية المشابهة.

وأما الآية المشابهة فوقع في سياقها ما يقتضي العدول عن التشابه والأصل إذا أريد تحقيق التناسب اللفظي؛ وهو قوله ﴿مَن جَآءَ﴾ مرتين، فعُدل إلى نقص الباء، فقيل ﴿أَعۡلَمُ مَن جَآءَ﴾ ليشاكل هذا اللفظ تَيْنَك المرتين، قال تعالى:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥﴾ [القصص:٨٤ - ٨٥].

---

(١) انظر: السابق: ٢٩٠.

(٢) انظر: السابق: ٢٩١.

(٣) انظر: الكرماني، غرائب التفسير: ٢: ٨٦٨، والآلوسي، روح المعاني: ٢٠: ٧٨.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الصافات ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤] وفي سورة المرسلات ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [1] [المرسلات: ١٨] فعُدل عن زيادة ﴿إِنَّا﴾ إلى نقصه.

أما الزيادة فاستدعاها سياق آية الصافات لمشاكلة ما وقع فيه من لفظ «إن» متكرراً، قال تعالى:

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ [الصافات: ٣١ - ٣٨].

وأما آية المرسلات المشابهة فلم يقع في سياقها ما يستدعي تلك الزيادة ويطلب المشاكلة اللفظية بها، إذ لم ترد «إن» فيما قارب الآية فعُدل إلى النقص.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤] وفي سورة القصص ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [2] [القصص: ٦٩] فعُبر بزيادة «إن» واللام الداخلة على الفعل «يعلم» في النمل، وعُدل إلى نقصهما في القصص.

والوجه المناسب لذلك هو مشاكلة كل آية لما تقدمها، إذ وقع فيما تقدم آية النمل زيادة «إن» واللام، ولم يقع فيما تقدم آية القصص ذلك المزيد، فكان العدول عن التشابه أنسب لتتشاكل الآيتان فيما افتُتحتا به، قال تعالى في سورة النمل:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٣ - ٧٤].

---

(١) انظر: البرهان: ٣١٥.

(٢) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٢١٦.

وقال في سورة القصص:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [القصص: ٦٨ - ٦٩].

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص الجملية قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] وفي سورة إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [1] [إبراهيم: ٦] فزيد في المائدة ﴿يَـٰقَوْمِ﴾، وعُدل إلى نقصه في إبراهيم.

ذكر الخطيب الإسكافي والكرماني أن الزيادة في المائدة لمناسبة ما تكرر من النداء فيما اكتنف الآية، فقد تكرر فيما تقدمها ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ مرتين [المائدة: ١٤ و ١٩]، وتكرر فيما بعدها ثلاثاً؛ في قوله ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟﴾ [المائدة: ٢١]، و ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٢]، و﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا﴾[2] [المائدة: ٢٤]، وهي مناسبة بعيدة يدخل منها في المشاكلة موضعان: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ و﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا﴾، والمشاكلة في الموضع الأول أظهر، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين.. ..﴾ الآية [المائدة: ٢٠ - ٢٢].

أما آية إبراهيم فذكر الخطيب الإسكافي والكرماني أنه لم يكتنفها ما اكتنف مشابهتها من تكرر النداء، ولذلك لم يزد فيها ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ [3]. أي أنه لما زال المقتضي اللفظي المناسب لزيادتها عُدل إلى نقصها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة غافر في الإخبار عن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] وفي سورة الشورى ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [4] [الشورى: ٥] فعُدل عن زيادة جملة ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إلى نقصها.

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٩٦، والبرهان: ١٦٢، وملاك التأويل: ١: ٢٥٠ - ٢٥١، وكشف المعاني: ١٤٨، والعقد الجميل: ٥٥.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٩٨، والبرهان: ١٦٢.

(٣) انظر: المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة، والصفحة نفسها فيهما.

(٤) انظر: العقد الجميل: ١٣٦.

أما الزيادة فمناسبة لقوله ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كما أشار الزمخشري ومن تابعه[1]، قال تعالى:

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

ولم يقع في آية الشورى ولا فيما قاربها لفظ يشاكل ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فعُدل إلى نقص الجملة.

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر:

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩] وفي سورة الكهف ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[2] [الكهف: ٥٤] فعُدل عن تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾ إلى تأخيره في سورة الكهف.

أما التقديم في آية الإسراء فمناسب لتقدم لفظ ﴿ٱلْإِنسُ﴾ على لفظ ﴿هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ في الآية المتقدمة كما نبه الكرماني[3]، قال تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٨ - ٨٩].

وأما آية الكهف فتأخر عنها ما يشاكل تأخر لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ وهو ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ و﴿ٱلنَّاسِ﴾، بخلاف آية الإسراء التي تأخر عنها لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ فقط في ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾، فكان تأخير لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في الكهف أرجح وأنسب، فعدل إلى ذلك فيها، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ .. ..﴾ الآية [الكهف: ٥٤ - ٥٥].

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف: ٣: ٤١٦، والنسفي، مدارك التنزيل: ٤: ١٠٥، وأبو حيان، البحر المحيط: ٧: ٤٥١، والسيوطي، معترك الأقران: ٣: ٤٠٧ - ٤٠٨، وغير ذلك.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٧٣، والبرهان: ٢٥٠، وملاك التأويل: ٢: ٦٢٩، وكشف المعاني: ٢٣٢، والعقد الجميل: ١١٤.

(٣) انظر: البرهان: ٢٥٠.

ب - العدول عن التشابه لتناسب الموافقة اللفظية :

الموافقة مرادفة للمناسبة[1]، وقد استعملها أصحاب توجيه المتشابه كثيراً - ولا سيما الكرماني - بمعنى التناسب قريبه وبعيده، وسنخصها هنا بالتناسب البعيد تمييزاً بينها وبين المشاكلة، وقد آثرنا ذلك لأن هذا النوع من التناسب لم يتكلم عليه البلاغيون البتة، ولا تعرض له القدماء ولا المحدثون إلا في آحاد المواضع من كتب التفسير، نقلوها عن أصحاب توجيه المتشابه.

ومدار الموافقة على إيقاع التناسب بين اللفظين المتباعدين لكونهما في سياق واحد، أو في قضية واحدة أو قضيتين متناسبتين، ومن هنا كان لتناسب الموافقة خاصة ترابطية أو خاصة الوحدة الفنية، وهي المقصودة من هذا التناسب الذي يراعيه القرآن في عدوله عن التشابه.

وجدير بالتنبيه أن هذه الصورة من التناسب ليست لفظية محضة، ولكن الجانب اللفظي فيها مقصود بالأولية، ولولا ذلك لما اختير التوافق اللفظي كما سيتبين.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة الزمر ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٨] وفي سورة الجاثية ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [2] [الجاثية: ٣٣] فعُدل عن ﴿كَسَبُوا﴾ إلى ﴿عَمِلُوا﴾.

ومناسبة ذلك كما نبه الخطيب الإسكافي هي الموافقة اللفظية في سياق كل من المتشابهين، لأن آية الزمر كما بيّن جاءت عقب اعتراض طويل بينها وبين آية أخرى عُبّر فيها عن العمل بلفظ الكسب، وبهذا اللفظ أيضاً عُبر فيما تلا الآية المتكلَّم فيها، وكانت الآيات الثلاث

(١) انظر: الدمنهوري، أحمد، حلية اللب: ١٣٤، نقلاً عن مطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٦٥٦.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤٠٨، والبرهان: ٣٢٢، وملاك التأويل: ٢: ٨٣٠، والعقد الجميل: ٦٠.

في قضية واحدة، فجاء التعبير في الآية المتكلم فيها بـ ﴿كَسَبُوا۟﴾ واقعاً موقعه المناسب، قال الخطيب الإسكافي: «إنما جاء قوله ﴿كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٨] في هذه السورة بناء على ما وقع الخبر به عن الظالمين في هذه الآية التي قبل هذه حيث يقول ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٢٤ - ٢٥] ثم اعترضت آيات تؤكد ما على الظالمين من الوعيد وتقوي ما للمصدقين من الوعد، إلى أن انتهت إلى ذكر هؤلاء الظالمين الذين قيل لهم ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] فقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٧ - ٤٨] فكان المعنى: ولو أن للظالمين الذين تقدم ذكرهم ما في الأرض ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب، ثم قال ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٨] أي الجزاء على ما كسبوا من سيئاتهم كما قيل لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] أي [جزاءه]، ثم أتبعه ذكر الكسب في الآيات التي بعدها في قوله ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥٠ - ٥١]»[(١)].

أما آية الجاثية فواردة في قضية واحدة مع آيات سبقتها عُبر فيها بلفظ العمل، فكان المناسب العدول عن التشابه إلى ﴿عَمِلُوا۟﴾ كما بين الخطيب الإسكافي بقوله: «وأما الآية التي في سورة الجاثية فالطريق في اختيار ﴿عَمِلُوا۟﴾ فيها كالطريق في اختيار ﴿كَسَبُوا۟﴾ في سورة الزمر، لأن قبلها قوله تعالى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] وبعده ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢٩ - ٣٠] وتبع ذلك قوله ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الجاثية: ٣٣] [فبنى ﴿عَمِلُوا۟﴾] على ما سبق، كما بنى هناك ﴿كَسَبُوا۟﴾ على ما تقدمه»[(٢)].

---

(١) درة التنزيل: ٤٠٨ - ٤٠٩، ووقع في الأصل جزاؤه بالضم، والصواب ما ذكرنا.

(٢) السابق: ٤٠٩، ووقع في الأصل عملوا فبنى، وهو خطأ مطبعي بين.

وقد لخص الكرماني توجيه الخطيب الإسكافي؛ فقال مبتدئاً بآية الزمر: «لأن ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٤٨] في هذه السورة وقع بين ألفاظ الكسب؛ وهو ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٤٨]، وبعده ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠]، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]، ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]. وما في الجاثية وقع بين ألفاظ العمل؛ وهو ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية: ٢٨ و٢٩]، ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، وبعده ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣]. فخصت كل سورة بما اقتضاه طرفاه» [(١)] ولكن لا بد من اشتراط القضية الواحدة كما سبق بيانه.

وقريب من المثال السابق قوله تعالى في سورة النحل ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [النحل: ٣٤] وفي سورة الزمر ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ﴾[(٢)] [الزمر: ٥١] فعُدل عن ﴿عَمِلُواْ﴾ إلى ﴿كَسَبُواْ﴾.

والإخبار في كل من المتشابهين عن مصير الظالمين، ولكن عُبر في سياق الأول عن اجتراحهم السيئات بلفظ العمل، فجاء التعبير بـ ﴿عَمِلُواْ﴾ مناسباً لذلك، وعُبر في سياق الثاني بلفظ الكسب، فاستدعى هذا العدولَ عن ﴿عَمِلُواْ﴾ إلى ﴿كَسَبُواْ﴾ مراعاة لتناسب الموافقة اللفظية؛ هذا ما نبه عليه أبو جعفر بن الزبير، فقال أولاً «ووجه ذلك - والله أعلم - استدعاء التناسب في كل من الموضعين. وقد ورد قبل آية النحل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨] ثم صُرف الكلام إلى كفار العرب في توقفهم عن الإيمان، فقيل ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٣٣] ثم قيل ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٣] والمراد: من قال ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] ومن كان على مثل حالهم، فقيل بناء على قولهم ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [النحل: ٣٤] وتناسب هذا أبين تناسب»[(٣)].

---

(١) البرهان: ٣٢٢ - ٣٢٣، وانظر أيضاً: ٣٣٣.

(٢) انظر: البرهان: ٢٤٣، وملاك التأويل: ٢: ٦٠١، والعقد الجميل: ٦٠.

(٣) ملاك التأويل: ١: ٦٠١ - ٦٠٢.

وكان الكرماني قد ذكر قريباً من ذلك في توجيه الآية وزاد عليه شيئاً، فقال: «وخُصت هذه السورة بالعمل لموافقة ما قبله؛ وهو ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨] ولموافقة ما بعده، وهو قوله ﴿وَتُوُفِّىَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١]»[(١)]. والاقتصار على الآية الأولى أحسن، لأن الظاهر أن قوله ﴿وَتُوُفِّىَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ غير داخل في قضية ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ ولا مرتبط به، وإلا لكان التناسب يقتضي التعبير في آية الزمر بـ ﴿مَا عَمِلُوا۟﴾ أيضاً لا العدول إلى ﴿مَا كَسَبُوا۟﴾؛ لأنه وقع في الزمر ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠] بلفظ العمل.

وقال أبو جعفر بن الزبير في آية الزمر المشابهة التي وقع فيها العدول: «وأما آية الزمر فقد وقع قبلها قوله ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٧] إلى قوله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٧ - ٤٨] وبعد هذا ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠] ثم قال ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الزمر: ٥١] يعني كفار العرب ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١]»[(٢)].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] وفي سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[(٣)] [الأعراف: ١٤١] فعُدل عن التعبير بالتذبيح إلى التعبير بالتقتيل.

أما التعبير بتذبيح الأبناء فهو المطرد فيما تكرر من تلك القصة في القرآن الكريم، كقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ﴾ [إبراهيم: ٦] وفي سورة القصص ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا

(١) البرهان: ٢٤٣ - ٢٤٤.
(٢) ملاك التأويل: ٢: ٦٠٢.
(٣) انظر: البرهان: ١٢٢، وملاك التأويل: ١: ٥٣، وكشف المعاني: ٩٥، والعقد الجميل: ١٠.

شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤] إضافة إلى ما وقع في سورة البقرة.

وأما العدول إلى التعبير بـ ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ في سورة الأعراف فاقتضته مناسبة ما حُكي من قول فرعون بذلك اللفظ - وهو قوله ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ - في القصة نفسها كما نبه ابن الزملكاني [ت ٦٥١ هـ] - وتابعه الزركشي - وذلك في آية يفصلها عن الآية الموجهة حوالي أربع عشرة آية، وهي قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾[1] الآية [الأعراف: ١٢٧].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة طه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣] وفي سورة الزخرف ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾[2] [الزخرف: ١٠] فعُدل عن التعبير بالسلوك إلى التعبير بالجعل.

ذكر الكرماني أن التعبير بالسلوك مع السبل أكثر استعمالاً، فخُصت سورة طه به كما ذكر[3]. ونبه هو وأبو جعفر بن الزبير على أن العدول إلى ﴿جَعَلَ﴾ في الزخرف لموافقة ما اكتنفه من التعبير بالجعل في قوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

وفي قوله:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾[4] [الزخرف: ١٢].

وزاد الكرماني على آيات الموافقة قوله تعالى:

---

(١) انظر: ابن الزملكاني، المجيد: ١٤٤، والزركشي، البرهان: ١: ١٢٠.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٨٤، والعقد الجميل: ٥.

(٣) انظر: البرهان: ٢٦٣.

(٤) انظر: السابق، والصفحة نفسها، وانظر أيضاً: ملاك التأويل: ٢: ٦٨٥.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

وقوله:

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

وقوله في قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[١] [الزخرف: ٢٨].

وهذه الآيات التي زادها الكرماني لا تدخل في قضية آية العدول، فالاقتصار على الآيتين اللتين ذكرهما أبو جعفر أيضاً أحسن، لأنهما في نفس سياق آية العدول وفي قضيتها؛ إذ الثلاث في الامتنان بالنعم. على أنه يمكن إدخال الآيتين الأوليين من الثلاث التي زادها الكرماني باعتبار أنهما من باب مقابلة تلك النعم بالكفران. وأياً كان، فالمقتضي للعدول هو مناسبة ألفاظ الجعل في السياق، فلم يكن يحسن هنا التعبير بالسلوك.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] وفي سورة يونس ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٢] [يونس: ١٧] فعُدل عن التعبير بـ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إلى التعبير بـ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

أما التعبير بـ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في آية الأنعام فمناسب لقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في أولها كما نبه الخطيب الإسكافي وتابعه جماعة[٣]، قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وأما العدول إلى التعبير بـ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ في آية يونس فاقتضته موافقة ما قبله من قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما نبه الخطيب الإسكافي وغيره، وذلك في الآية التي أخبر الله بها عن إهلاك الأقوام السابقين:

---

(١) انظر: البرهان: ٢٦٣.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١١٤، والبرهان: ١٦٧، وملاك التأويل: ١: ٢٩٩ - ٣٠٠، وكشف المعاني: ١٥٨، والعقد الجميل: ٢٠.

(٣) انظر: درة التنزيل: ١١٥، والبرهان: ١٦٧، وكشف المعاني: ١٥٨، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٦٢.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

وقال بعد ذلك مخاطباً المعاصرين لرسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] واستمر الكلام في خطابهم إلى أن قال:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

فناسب العدول إلى التعبير بـ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لموافقة التعبير بهذا اللفظ في الإخبار عن إهلاك الأقوام السابقين، لأن الآيتين في قضيتين متناسبتين، وهو ما أشار إليه الخطيب الإسكافي بأن ذلك العدول ليُعلم أن سبيل المخاطبين في الضلال سبيل الأقوام السابقين الذين أخبر عن إهلاكهم بـ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة القصص ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦] وفي سورة السجدة ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2] [السجدة: ٣] فعُدل عن التعبير بـ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى التعبير بـ ﴿يَهْتَدُونَ﴾.

والوجه هو الموافقة اللفظية بين قضيتين متناسبتين في كل من السورتين، لأن ما في سورة القصص خطاب لرسولنا محمد ﷺ؛ خوطب به بعد الإخبار عن موسى عليه السلام وقومه بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

فعلل سبحانه إيتاء موسى عليه السلام الكتاب بتذكر قومه؛ أي اتعاظهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فناسب تعليل إنذار محمد ﷺ قومَه بتذكرهم، فقال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أما في سورة السجدة فأخبر سبحانه عن أنه جعل الكتاب الذي آتاه لموسى عليه السلام هدىً لقومه، قال تعالى:

---

(١) انظر: درة التنزيل: ١١٦، والبرهان: ١٦٧، وانظر أيضاً: ملاك التأويل: ١: ٣٠٣، وكشف المعاني: ١٥٨ - ١٥٩. والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٦٢.

(٢) انظر: ابن الجوزي، فنون الأفنان: ٤٤٨.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ .... ﴾ الآية [السجدة: ٢٣ - ٢٤].

فاقتضى تناسب الموافقة اللفظية العدول إلى ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في تعليل إنذار محمد ﷺ قومَه، فقال تعالى:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الكهف في قصة كافر منكر للبعث ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦] وفي سورة فصلت في وصف حال الإنسان المنكر للبعث ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[1] [فصلت: ٤٩ - ٥٠] فعُدل عن التعبير بـ ﴿رُّدِدتُّ﴾ إلى التعبير بـ ﴿رُّجِعْتُ﴾.

والوجه المناسب لذلك هو الموافقة اللفظية بين قضيتين متناسبتين في كل من السورتين؛ ففي الكهف حُكي عن الكافر إنكاره للبعث بلفظ الرد لموافقة ما حُكي في قصة ذي القرنين من التعبير عن البعث بلفظ الرد، مع أن الفاصل بين هذين اللفظين أكثر من خمسين آية، قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

أما في فُصلت فعُبر عن البعث بلفظ الرجع في آية مفصولة عن آية العدول بحوالي ثلاثين آية، وهي الآية التي أخبر تعالى فيها عن المقاولة بين الكفار وجلودهم التي أنطقها سبحانه لتشهد عليهم، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

فاقتضى تناسب الموافقة اللفظية في هذه السورة أن يُعدل عن ﴿رُّدِدتُّ﴾ إلى ﴿رُّجِعْتُ﴾ فيما وصف به حال المنكر للبعث، فقال تعالى:

---

(١) تقدم في العدول بالمبدلات اللفظية المتقاربة.

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [فصلت: ٥٠].

ويؤكد هذه المناسبة أنه لم يُعبر عن البعث في هذه السورة إلا بهذين اللفظين المتناسبين ﴿تُرْجَعُونَ﴾ و﴿رُّجِعْتُ﴾، كما أنه لم يعبر عنه في سورة الكهف إلا باللفظين المتناسبين ﴿رُّدِدتُّ﴾ و ﴿يُرَدِّ﴾، على ما بين كل اثنين من طول الفاصل.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الرعد ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] وفي سورة طه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1] [طه: ١١٣] فعُدل عن التعبير بـ ﴿حَكَمًا﴾ إلى التعبير بـ ﴿قُرْءَانًا﴾.

أما التعبير بالحكم في آية الرعد فمناسب لـ ﴿يَحْكُمُ﴾ و﴿لِحُكْمِهِۦ﴾ في قوله تعالى مما تلا الآية:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

فهذه الآية وقوله ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ في سياق واحد.

أما آية طه فهي متصلة بأول السورة الذي جاء فيه قوله سبحانه:

﴿ما أنزلناه عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ٢].

فهذا خطاب لرسول الله محمد ﷺ، واستمر الخطاب إلى قوله ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩]، ثم اعترضت قصة موسى عليه السلام وقومه[2]، ولما انتهت وُصل خطاب الله تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ بقوله ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩] واتصلت بهذا آيات تؤكد جزاء المعرض عن الذكر؛ أي القرآن، وتخبر عما يجري يوم القيامة، وعما يلقاه كل من الظالم والمؤمن؛ كل ذلك على سبيل الاعتراض، ثم وُصل قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾ [طه: ٩٩] السابق بقوله تعالى عطفاً عليه:

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٦٩، والعقد الجميل: ١٠٤.

(٢) انظر التنبيه على ذلك الاعتراض في ملاك التأويل: ٢: ٥٧٠ - ٥٧١.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1] [طه: ١١٣].

فصار قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣] متصلاً اتصالاً وثيقاً بأول السورة ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢] وجَرْيا - مع كثرة الاعتراض وطوله؛ إذ هو أكثر من مئة آية - في سياق واحد، فلم يكن ليناسب هنا إلا العدول عن ﴿حَكَمًا﴾ إلى ﴿قُرْءَانًا﴾، ولا سيما أن آية طه المشابهة لم تتصل بما قبلها فحسب على هذا الوجه المشروح، بل اتصلت أيضاً بآية جاءت بعدها ورد فيها لفظ «القرآن» وكانت هذه الآية متصلة بأول السورة أيضاً، قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾﴿فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه....﴾ الآية [طه: ١١٣-١١٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي الحجر والذاريات ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥، والذاريات: ١٥] وفي سورة المرسلات ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾[2] [المرسلات: ٤١] فعُدل عن التعبير بـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إلى التعبير بـ ﴿ظِلَٰلٍ﴾.

أما التعبير بـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ فهو المطرد في القرآن الكريم فيما يشبه النمط الوارد في الحجر والذاريات، كقوله تعالى في سورة الدخان ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١-٥٢] وفي سورة القمر ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤] وقوله في سورة القلم ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[3] [القلم: ٣٤].

وقد انفردت آية المرسلات بالعدول عن مشابهاتها النمطية وغير النمطية لمناسبة لفظية في السورة؛ اقتضاها ورود لفظي ﴿ظِلٍّ﴾ و﴿ظَلِيلٍ﴾ في الإخبار عما يقال للمكذبين يوم القيامة، قال تعالى:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات: ٢٨-٣١].

---

(١) انظر التنبيه على أن كذلك معطوف على كذلك في روح المعاني للآلوسي: ١٦: ٢٦٦.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٠٦ - ١٠٧.

(٣) انظر: السابق: ١٠٧.

فناسب في الإخبار عن المتقين الذين هم أضداد المكذبين استعمال اللفظ نفسه، فعدل عن ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إلى ﴿ظِلَٰلٍ﴾، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

ومن أمثلة العدول بالمبدلات التعقيبية قوله تعالى في سورة القصص مخبراً عن فرعون وجنوده ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] وفي سورة الذاريات ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1] [الذاريات: ٤٠] فالعدول عن ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلى ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أما تعقيب آية القصص بما عقبت به فمناسب لما وقع في قصة موسى عليه السلام وفرعون من وصف قوم فرعون بالظلم، قال تعالى في الإخبار عن موسى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

ثم قال في حكاية خطاب شعيب لموسى عليهما السلام:

﴿قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

ثم قال سبحانه بعد خمس عشرة آية تعقيباً على القصة وخطاباً لنبيه محمد ﷺ:

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

فكان مناسباً في اللفظ لما تقدم.

وأما العدول إلى التعقيب بـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ في الذاريات فاستدعاه التناسب اللفظي بينه وبين قوله ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤] لأنه تعالى أخبر عن فرعون أنه رمى موسى عليه السلام بالسحر والجنون، قال تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٣٩]، ثم عقب القصة بقوله تبارك وتعالى مخبراً عن فرعون وجنوده:

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

---

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٢١٧.

وأتبع ذلك بقصص عاد وثمود ونوح عليه السلام في ست آيات، ثم ببعض دلائل قدرته في ثلاث، ثم بالتحذير من الإشراك وبالدعاء إلى الطاعة في آيتين؛ كل ذلك على سبيل الإيجاز، ثم سلّى نبيه محمداً ﷺ عن تكذيب قومه له بقوله ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] فارتبط قوله تعالى هنا ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ بما أخبر به سابقاً عن فرعون في قوله ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩] وبهذا الرابط اتصلت قصة فرعون بخطابه تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك نوسب بين وصف فرعون - الذي قاد قومه إلى الهلاك- بـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، وبين الحكم على نبينا محمد ﷺ- الذي قاد قومه إلى الرشاد - بنفي اللوم عنه في ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، فقال تعالى يأمر نبيه ﷺ بالتولي عن قومه بعد أن أبوا إلا عناداً وطغياناً:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤].

فلمناسبة ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ عُدل عن تعقيب آية الذاريات بـ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذي وقع في القصص إلى تعقيبها بـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

ومن أمثلة العدول بالمبدلات الصيغية قوله تعالى في سورة يونس ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١] وفي سورة سبأ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] [سبأ: ٢٤] فعُدل عن التعبير بصيغة المفرد إلى صيغة الجمع.

قال أبو جعفر بن الزبير: «الإفراد الوارد في يونس محصّل للمعنى مع الإيجاز، فورد هنا على ما يجب. وأما الوارد في سورة سبأ فروعي فيه ما تقدم من قوله تعالى ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] والمراد بذلك نفي الشركاء له تعالى، ثم عاد الكلام إلى ذلك أيضاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٤] على الجمع مناسبة لما تقدم، إذ الآية قبل وهذه في قضية واحدة؛ هي نفي الشركاء والأنداد، فجاءت على ما يناسب التي قبلها»[2]. ولهذه المناسبة عُدل عن صيغة الإفراد الواردة في يونس.

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٤٨٥، والعقد الجميل: ٩٤.

(٢) ملاك التأويل: ١: ٤٨٥ - ٤٨٦.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] وفي سور يوسف و ص والتكوير ﴿إِنْهُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [يوسف: ١٠٤، وص: ٨٧، والتكوير: ٢٧] والمراد بـ ﴿هُوَ﴾ القرآن، والعدول في الظاهر عن التعبير بصيغة المؤنث ﴿ذِكْرَىٰ﴾ - وهي اسم مصدر للتذكير[2] - إلى صيغة المذكر ﴿ذِكْرٌ﴾.

أما التعبير بصيغة المذكر فهو المطرد في القرآن الكريم فيما يشبه النمط المذكور، كقوله تعالى في سورة يس ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وفي سورة القلم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3] [القلم: ٥٢].

وأما العدول إلى صيغة المؤنث فنبه الكرماني وغيره على أنه لمناسبة ما تقدم في هذه السورة من لفظ ﴿بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ و﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾[4] في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٨ - ٦٩].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٣٨] وفي سورة طه ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾[5] الآية [طه: ١٢٣] فعُدل عن التعبير بـ ﴿تَبِعَ﴾ المجرد إلى ﴿ٱتَّبَعَ﴾ المزيد.

والمتشابهان في قصة آدم وزوجه عليهما السلام وإبليس، والخطاب لهم بعد أمرهم بالهبوط إلى الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] والمراد بالهدى رسول يبعثه الله إلى الذرية وكتاب ينزله عليهم[6].

أما آية البقرة فالتعبير فيها بصيغة المجرد مناسب للفظ ﴿تَبِعُوا۟﴾ في قوله تعالى بعد أكثر من مئة آية مخاطباً رسوله ﷺ:

---

(١) انظر: البرهان: ١٧٢، وملاك التأويل: ١: ٣٣٠، وكشف المعاني: ١٦٣، والعقد الجميل: ٦٩.
(٢) انظر: الآلوسي، روح المعاني: ٧: ٢١٨.
(٣) انظر: العقد الجميل: ٦٩.
(٤) انظر: البرهان: ١٧٢، وكشف المعاني: ١٦٣، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٩٠٦.
(٥) انظر: البرهان: ١٢١، وملاك التأويل: ١: ٤٥، وكشف المعاني: ٩٣، والعقد الجميل: ٩.
(٦) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٢٨.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ الآية [البقرة: ١٤٥].

فواضح أن قوله هذا في قضية مناسبة لقضية الآية:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وأما آية طه المشابهة فقال فيها الكرماني - وتابعه الزركشي - : «وإنما اختار في طه ﴿ٱتَّبَعَ﴾ موافقة لقوله تعالى قبلها ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨]»[(١)]. بيد أن قوله ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ وارد في الإخبار عن يوم القيامة، فلا صلة له بقوله ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾. والظاهر أنه عُبر بهذا المزيد هنا عدولاً عما وقع في البقرة لمناسبة لفظ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ﴾ فيما حكاه الله من قول موسى وهارون عليهما السلام لفرعون، والوارد قبل آية العدول بحوالي ثمانين آية، وهو:

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه:٤٧].

فهذه الآية في قضية مناسبة أتم مناسبة لقضية الآية المشابهة:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [طه:١٢٣].

مع طول الفاصل بينهما، لأن القضية في الآيتين إتيان الهدى الذي هو الرسول والكتاب كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وتلك هي القضية أيضاً في آيتي البقرة السابقتي الذكر، فكما نوسب هناك بين اللفظين الواقعين في الآيتين ﴿تَبِعَ هُدَاىَ﴾ [البقرة:٣٨] و ﴿تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] نوسب هنا - أي في طه - بين اللفظين الواقعين في الآيتين أيضاً ﴿ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [طه: ٤٧] ﴿ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾[طه: ١٢٣] ولم يكن لهذا التناسب أن يتحقق هنا إلا بالعدول عن ﴿تَبِعَ﴾ إلى ﴿ٱتَّبَعَ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران مخبراً عن حواريي عيسى عليه السلام ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢] وفي سورة المائدة في الإخبار عنهم أيضاً: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

(١) البرهان: ١٢١، وانظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١: ١١٥.

وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[1] [المائدة: ١١١]. فعُدل عن حذف النون في ﴿بِأَنَّا﴾ إلى ردها في ﴿بِأَنَّنَا﴾ على الأصل.

أما آية آل عمران فالحذف فيها مناسب للحذف في قوله فيما بعد ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] للموافقة اللفظية مع التناسب في القضية، لأن قوله تعالى:

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

هو حكاية عن حواريي عيسى عليه السلام كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهم أتباعه وأنصاره، وقوله فيما بعد ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هو أمر لأتباع رسول الله ﷺ وأنصاره؛ أُمروا بأن يردوا به على أهل الكتاب الذين تولوا عن الإيمان، والمناسبة بين أتباع النبيين بينة، ولذلك نوسب بين اللفظين، وقد جاء ذلك الأمر في قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولم يقع في سورة المائدة ما يستدعي مثل تلك الموافقة اللفظية، فعُدل عن الحذف إلى التمام، فقيل ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

٢ - العدول بالزوائد والنواقص:

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص قوله تعالى في سورة القصص ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠] وفي سورة الشورى ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2] [الشورى: ٣٦] فعُدل عن زيادة ﴿وَزِينَتُهَا﴾ إلى نقصه في الشورى.

ووجه ذلك وقوع لفظ مناسب لـ ﴿وَزِينَتُهَا﴾ في القصص - وهو ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩] - وعدم وقوع مثل ذلك في الشورى كما نبه أبو جعفر بن الزبير - وتابعه السيوطي مختصراً - قائلاً: «سورة القصص تضمنت ذكر قارون وما أوتيه من المال الذي هو زينة

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٦٩، والبرهان: ١٤٩، وملاك التأويل: ١: ١٦٥، وكشف المعاني: ١٣٠، والعقد الجميل: ٤١.

(٢) تقدم في العدول بزوائد ونواقص الاسم.

الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] ثم أخبر تعالى عن زهوه واختياله بماله وظنه استحقاقه إياه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩] حتى قال من غفل عن آخرته ولم يعلم [ما أعد الله] فيها للمؤمنين ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ [القصص:٧٩] فقدم سبحانه للمعتبر من عباده المؤمنين وتنبيهاً للغافلين لتحصل السلامة للسعداء ممن عُصم مما ابتُلي به قارون، فقال تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٦٠] أي للمؤمنين ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص:٦٠] وقد أخبرهم سبحانه في موضع آخر أن الدنيا وحياتها غرور، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار. وبعد تحذير المؤمنين وردت قصة قارون، فالتحمت الآية بتلك القصة، وقيل هنا ﴿وَزِينَتِهَا﴾ [القصص:٦٠] كما قيل في تلك ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص:٧٩] ومن الذي يعدل عما عند الله سبحانه إلى ما جعله الله تعالى سبباً لإهلاك المشركين! فتناسب هذا كله وتلاءم. ولم يقع في آية الشورى ذكر ﴿وَزِينَتِهَا﴾ إذ لم يرد فيها ما ورد هنا مما استدعى هذه المناسبة»[1].

ومما يتعلق بالمثال السابق قوله تعالى في سورة القصص في الإخبار عن قارون باغتراره بكثرة ماله ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨] أي أوتيت هذا المال الكثير بمعرفة مني ومهارة لي في وجوه الكسب والتجارة وباستحقاقي إياه، ولولا رضا الله عني ومعرفته باستحقاقي وفضلي ما أعطاني هذا المال[2]. وقال سبحانه في سورة الزمر في الإخبار عن جحد الكافر إذا أعطاه نعمة بعد ضر ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [3] [الزمر:٤٩] فعُدل عن زيادة ﴿عِندِىٓ﴾ إلى نقصه في الزمر.

وزيادة ﴿عِندِىٓ﴾ في قصة قارون لمناسبة وقوع اللفظ نفسه في قوله تعالى قبل ذلك بثماني عشرة آية: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ الآية

---

(١) ملاك التأويل: ٢: ٧٥٩-٧٦٠، وما وضعناه بين قوسين من قوله ما أعد الله هو في الأصل ما أعدله، وليس بمستقيم، فلعل صوابه ما ذكرناه. وانظر متابعة السيوطي لأبي جعفر في معترك الأقران: ٣: ٣٤٢-٣٤٣.

(٢) انظر: الزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٣٩٦، والأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ٢: ١٦٩.

(٣) انظر: العقد الجميل: ١٣٠.

[القصص ٦٠] وذلك لما بين قوله هذا وبين قصة قارون من الترابط على نحو ما بين أبو جعفر ابن الزبير في المثال السابق.

وعُدل عن تلك الزيادة إلى النقص في سورة الزمر لعدم ورود ما يستدعيها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠] وفي سورة ق ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (١) [ق:٣١] فعُدل عن نقص ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ إلى زيادته.

أما ما في الشعراء فمناسب من حيث لم يرد أي ذكر للفظ البعد في سورة الشعراء كلها.

وأما العدول إلى الزيادة في ق فلمناسبة تقدم قوله ﴿فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ فيما أخبر تعالى عما يقوله قرين الكافر يوم القيامة، وهو:

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾

فحسن العدول إلى زيادة ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ في جزاء المتقين، للتناسب اللفظي بين المتقابلين، فقيل:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق :٣١].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:٤٢] وفي سورة النحل ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (٢) [النحل :٦٣] فعُدل عن نقص لفظ ﴿تَٱللَّهِ﴾ إلى زيادته.

أما النقص في الأنعام والاكتفاء بـ ﴿وَلَقَدْ﴾ فمناسب لتقدم ﴿وَلَقَدْ﴾ في قوله:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ... ﴾ الآية [الأنعام:٣٤]

وأما العدول إلى زيادة ﴿تَٱللَّهِ﴾ في النحل فلمناسبة تقدم اللفظ نفسه ﴿تَٱللَّهِ﴾ في قوله:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل :٥٦]

لأن قوله هذا وقوله بعد في الآية المشابهة:

---

(١) انظر: السابق:١٢٩.

(٢) انظر: السابق: ٦٦.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل :٦٣]

متصلان، وهما في تعديد افتراءات المشركين وتهديدهم، مع ما فيه من تسلية رسول الله ﷺ، والحاصل أن اتصالهما جعل التناسب اللفظي بينهما مستحسناً، فعُدل عن التعبير بـ ﴿وَلَقَدۡ﴾ الوارد في الأنعام لعدم مناسبته هنا إلى التعبير بـ ﴿تَٱللَّهِ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة في قصة بني إسرائيل ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ [البقرة :٥٨] وفي سورة الأعراف في القصة نفسها ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ [1] [الأعراف :١٦١] فعُدل عن زيادة ﴿رَغَدٗا﴾ إلى نقصه في الأعراف.

ووجه ذلك هو تناسب الموافقة اللفظية بين هذه القصة وقصة آدم عليه السلام في كل من السورتين لما بين القصتين من تناسب، ففي سورة البقرة زيد لفظ ﴿رَغَدٗا﴾ في قصة آدم، قال تعالى:

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدٗا حَيۡثُ شِئۡتُمَا ... ﴾ الآية [البقرة :٣٥]

فكانت زيادته في قصة بني إسرائيل الواردة بعد ما يزيد على عشرين آية مناسبة لذلك، قال تعالى:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ [البقرة :٥٨]

أما سورة الأعراف فلم يُزد لفظ ﴿رَغَدٗا﴾ في قصة آدم فيها، قال تعالى:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الآية [الأعراف:١٩] .

وبعد ما يزيد على مئة وأربعين آية جاءت قصة بني إسرائيل، فحسن فيها العدول إلى نقص ﴿رَغَدٗا﴾ لتناسب الوارد في قصة آدم هنا كما ناسبتها في الزيادة في سورة البقرة، فقيل هنا:

﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ [الأعراف :١٦١]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة في جزاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦٢ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا

(١) تقدم في العدول بزوائد ونواقص الاسم.

يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢] وفي سورة آل عمران في جزاء الذين كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ولم يتوبوا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [1] [آل عمران :٨٧-٨٨] فعُدل عن نقص ﴿جَزَآؤُهُمْ أَنَّ﴾ إلى زيادته في آل عمران.

أما النقص في البقرة فمناسب لما تقدم الآية من وصف المؤمنين الصابرين بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ﴾ بلا ذكر الجزاء، قال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

ثم قال بعدها بآيات :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ *خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة :١٦١-١٦٢] فروعيت هنا المناسبة اللفظية بين وصف المؤمنين الصابرين وبين وصف الكافرين الذين وافوا على الكفر، لأن الآيات مبنية على المقابلة المعنوية بين الأمر بالصبر وغيره وبين النهي عن الكفر في قوله ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة :١٥٢-١٥٣].

وأما آية آل عمران فتقدمها مقابلة بين من ثبت على الإسلام وبين من اختار ديناً غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران :٨٤] إلى قوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ*وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران :٨٤-٨٥] فروعيت المناسبة اللفظية فيما ورد من وصف هذين الفريقين فقال تعالى فيمن اختار غير الإسلام:

﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ...﴾ الآية [آل عمران:٨٦ -٨٩]

وقال فيمن ثبت على الإسلام بعد ما يقرب من خمسين آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران:١٣٠] إلى أن قال ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

(١) انظر: العقد الجميل: ١٥.

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران :١٣٣-١٣٤] إلى قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران :١٣٥-١٣٦]

فقال ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ مراعاة لقوله ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، فالعدول عن التشابه إذن -والله أعلم- لمراعاة هذه المناسبة اللفظية بين الفريقين الذين قوبل بينهما في هذه السورة.

ومما يرجح بناء هذه المناسبة اللفظية على التقابل المعنوي أنه ذُكر في سورة آل عمران الذين كفروا وماتوا وهم كفار كما ذُكروا في سورة البقرة، ولكن لم يُناسب بين لفظ الآية التي ذكروا فيها في آل عمران وبين لفظ آية العدول كما كان في البقرة، وإنما قال تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا... ﴾ الآية [آل عمران:٩١] وهذه الآية كما هو واضح أقرب إلى آية العدول من تلك التي ذكرنا أنه عُدل عن التشابه لمناسبتها.

٣- العدول بالمقدم والمؤخر:

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر قوله تعالى في آيتين من سورة الأنعام ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣ و١٢٨] وفي سورة يوسف ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [1] [يوسف:٦] فعُدل عن تقديم ﴿حَكِيمٌ﴾ إلى تأخيره في يوسف.

ووجه ذلك مناسبة كل من المتشابهين لما ورد في سورته من تقدم لفظ ﴿حَكِيمٌ﴾ أو تأخره في الآيات التي اجتمع فيها صفتان من صفاته تبارك وتعالى، ففي سورة الأنعام تقدم الوصف بـ ﴿حَكِيمٌ﴾ في ثلاث آيات؛ هي:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام :١٨]

و﴿... عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام :٧٣]

و﴿... سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام :١٣٩]

---

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٦٧-٦٨-٦٩، وسند، السيد محمود، أوجز البيان: ٦٢.

وقد جاءت الآيتان المتشابهتان في أثناء تلك المذكورات، فتقدم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيهما لينا سب تقدمه في تلك، قال تعالى:

﴿. . . نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام :٨٣]

و﴿. . . قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨]

أما في سورة يوسف فتأخر الوصف بـ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وتقدم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ في آيتين، هما:

﴿. . . عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف :٨٣]

و﴿. . . إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف : ١٠٠]

فكان تناسب الموافقة اللفظية في هذه السورة يستدعي العدول عن التشابه إلى تأخير الوصف بـ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦].

ولا سيما أن هذه الآية والآيتين قبلها في قصة واحدة.

جـ - العدول عن التشابه للتناسب اللفظي بين المطلع والختام :

التناسب اللفظي بين المطلع والختام صورة ثالثة من صور التناسب الفظي التي يراعيها العدول عن التشابه، وهي داخله في الصورتين قبلها، ولكنها تخالفهما في اختصاصها بالترابط بين صدر الكلام وعجزه، وهو ضرب «من ضروب البيان وفنون التلعب باللسان»[(١)].

وقد أعلوا من شأن ذلك الترابط حتى قال ابن المقفع [ت١٤٣هـ] فيما ذكر الجاحظ [ت٢٥٥هـ]: «خير أبيات الشعر الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته»[(٢)] ولهذا استحسنا إفراد هذه الصورة عما سبقها.

وقد تناول القدماء هذه الصورة من التناسب في دراساتهم القرآنية والبلاغية تحت تسميات مختلفة كـ «الإرصاد» و «التسهيم» و«التوشيح» و «التصدير» و«الترديد» و«رد العجز على الصدر»، وأداروا بحثهم لها على التفصيل فيما تختص به من ترابط بين صدر الكلام

(١) ابن النقيب، مقدمة تفسير ابن النقيب:٤٩٧.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين: ١:١١٦.

وعجزه معنوياً كان أو لفظياً[1]، وقد فرق بعضهم بين ما هو معنوي محض، وبين ما هو لفظي؛ أي ما يحصل بموافقة مطلع الكلام لآخره في اللفظ؛ بأن يعاد اللفظ نفسه أو مشاكله[2]، وهذا الذي يهمنا هنا.

ويهمنا أيضاً شيء آخر؛ هو أن الذين تناولوا هذه الصورة من التناسب قيدوها بحدود البيت الواحد[3] أو الآية الواحدة[4]، وقد كشف لنا العدول أنها كما تراعى أحياناً في الآية الواحدة قد تراعى في غيرها كالقضية الواحدة المؤلفة من مجموعة آيات، وكالقصة الواحدة، ومجموعة القصص المتتالية. ولذلك - إضافة إلى ما سبق من أهمية هذه الصورة - رأينا أن نفردها عما تقدمها، وأن نرتب أمثلة العدول فيها على الأنواع المذكورة آنفاً؛ أي في الآية، ثم في القضية، ثم في القصة، ثم في القصص، لإبراز مراعاته لكل منها على حدة.

أ- في الآية:

فمن أمثلة العدول لمراعاة التناسب اللفظي بين مطلع الآية وختامها قوله تعالى في سبع آيات في ست سور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران :١٢٢ و١٦٠، والمائدة :١١، والتوبة: ٥١، وإبراهيم:١١، والمجادلة :١٠، والتغابن: ١٣] وفي سورة إبراهيم فقط ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[5] [إبراهيم :١٢] فعُدل عن ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ووجه ذلك أن آية إبراهيم الثانية التي وقع فيها العدول انفردت عن مشابهاتها بوقوع الفعل ﴿نَتَوَكَّلَ﴾ في مطلعها، فاقتضى إحراز التناسب العدول فيها وحدها إلى ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ليتناسب مطلعها وختامها، قال تعالى:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم :١٢]

---

(١) انظر: أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن:٢٦٦، ومطلوب، د. أحمد،معجم المصطلحات البلاغية:٥٧ وما بعدها، و٣٥٥ وما بعدها، و٤٣٨، و٤٩٦ .

(٢) انظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير: ٢٣١، والزركشي،البرهان: ١: ٧٨-٧٩، وأبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٢٦٦، ومطلوب، د.أحمد، معجم المصطلحات البلاغية:٣٥٧.

(٣) انظر: مطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية:٥٧ وما بعدها، و٣٥٥ وما بعدها.

(٤) انظر: الزركشي، البرهان:١:٧٨.

(٥) انظر: العقد الجميل:٤٤.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء:٣٦] وفي سورة الفرقان ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[1] [الفرقان:٤١] فعُدل عن إظهار الفاعل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى إضماره.

أما الإظهار في آية الأنبياء فلمناسبة ختامها بقوله ﴿كَٰفِرُونَ﴾، قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء :٣٦]

ولما لم يرد في ختام آية الفرقان لفظ يناسب مطلعها عُدل إلى الإضمار في المطلع لأنه أخصر.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون:١٨] وفي سورة لقمان ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[2] [لقمان :١٠] بالعدول إلى نقص ﴿بِقَدَرٍ﴾.

أما الزيادة في آية المؤمنين فمشاكلة لقوله تعالى في ختامها ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾، قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨]

وأما آية لقمان فلم يقع فيها ما يستدعي تلك الزيادة ويطلب تلك المناسبة، فعُدل فيها إلى النقص.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ﴾ [الأنعام :٥٠] وفي سورة هود ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾[3] [هود :٣١] فعُدل عن زيادة ﴿لَكُمْ﴾ في الأنعام إلى نقصه في هود في ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾.

أما الزيادة فنبه الكرماني على مناسبتها بقوله: « لأن ما في الأنعام آخر الكلام فبدأ بالخطاب وختم به»[4] أي أنه لما كان مطلع الخطاب ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ناسبه الزيادة في ختامه؛ وهو ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ﴾ ليكون كالمطلع، قال تعالى:

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٩٨، والبرهان: ٢٦٧، وملاك التأويل: ٢: ٦٩٤، والعقد الجميل: ١٢١.

(٢) انظر: العقد الجميل: ٥.

(٣) انظر: البرهان:٢٢٢، وملاك التأويل: ١: ٣٢٧، وكشف المعاني: ١٦١، والعقد الجميل: ٦٦.

(٤) البرهان:٢٢٢، وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٨٢.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام :٥٠]

وأما العدول إلى نقص ﴿لَكُمْ﴾ في آية هود فليتناسب مطلع الخطاب وختامه في أثناء الآية مثل التناسب في آية الأنعام كما نبه الكرماني بقوله: «وليس ما في هذه السورة آخر الكلام، بل آخره ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود :٣١] فبدأ بالخطاب وختم في السورتين به»[(١)] أي أنه لما لم يكن قوله ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ في هود آخر الخطاب حسن العدول إلى نقص ﴿لَكُمْ﴾، ليكون قوله في الجملة التالية ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ الذي هو ختام الخطاب في هذه الآية مناسباً لمطلعه ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾، قال تعالى:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود :٣١]

ومن الواضح أن العدول هنا للتناسب اللفظي بين المطلع والختام في أثناء الآية.

٢- في القضية:

ومن أمثلة العدول لمراعاة التناسب اللفظي بين مطلع القضية وختامها قوله تعالى في إحدى آيتين من سورة الأنعام ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام :١١٢] وفي الآية المشابهة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[(٢)] [الأنعام :١٣٧] فالعدول عن التعبير باسم الرب إلى الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾.

قال الكرماني في الآية الأولى: «لأن قوله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١١٢] وقع عقيب آيات فيها ذكر الرب مرات، وهي ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام : ١٠٤] الآيات فختمها بذكر الرب ليوافق آخرها أولها»[(٣)] والقضية في نفي الشريك.

---

(١) البرهان:٢٢٢، وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٨٢ .

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٢٧، والبرهان: ١٧٦، وملاك التأويل: ١: ٣٤٢، وكشف المعاني:١٦٥، والعقد الجميل:٧.

(٣) البرهان:١٧٦، وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ٢:٩٢٧.

وقال الكرماني في الآية الثانية: «وقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧] وقع بعد قوله ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] فختم بما بدأ»[(١)].

فالعدول الذي وقع في ختام القضية لمناسبة مطلعها في الآية التي تقدمت آية العدول ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا.. ..﴾ [الأنعام: ١٣٦] والقضية في الآيتين على الظاهر من تفسيرهما إخبار عن ضلال المشركين؛ بتقسيمهم القربان من الحرث والأنعام بين الله سبحانه وبين آلهتهم وبقتلهم أولادهم[(٢)].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في إحدى آيتين من سورة النساء ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وفي الآية المشابهة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [(٣)] [النساء: ١٢٢] فعُدل عن ﴿حَدِيثًا﴾ إلى ﴿قِيلًا﴾.

أما الآية الأولى فجاءت في ختام قضية وقع فيها في مطلعها لفظ ﴿حَدِيثًا﴾، فكان التعبير بهذا اللفظ في الآية مناسباً للمطلع، والقضية كما يرشد التفسير في ذكر المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد ونسبوا ما أصابهم من نعمة إلى الله تعالى وما أصابهم من نقمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أي أنها كما زعموا حصلت بسببه[(٤)]، ومطلع القضية قوله تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وتبعت ذلك آيات في ذكر أولئك المتخلفين، إلى أن خُتمت القضية بقوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وأما الآية المشابهة فكانت ختاماً لقضية عُبر في مطلعها بلفظ ﴿قَالَ﴾، فعُدل في الآية إلى ما يناسبه؛ وهو ﴿قِيلًا﴾، ليتناسب المطلع والختام، وذلك لأن القضية في الإخبار عن

---

(١) البرهان: ١٧٦، وانظر أيضاً السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٩٢٧.

(٢) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٢٩١.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢١٢.

(٤) انظر: الزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٩١.

إضلال الشيطان للناس وتحذيرهم منه، فبعد أن أخبر تعالى عن المشركين بقوله ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧] أي يعبدونه، وصل سبحانه ذلك بالإخبار عن الشيطان وبحكاية قوله في:

﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[النساء: ١١٧-١١٨].

فحكى سبحانه قول الشيطان بلفظ ﴿قَالَ﴾ في مطلع القضية، وتبع ذلك آيات في التحذير من اتباعه وفي وعيد متبعيه ووعد المؤمنين، إلى أن خُتمت بقوله تعالى:

﴿. . .وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

فعُدل عن ﴿حَدِيثًا﴾ الواقع في الآية المشابهة إلى ﴿قِيلًا﴾ هنا لمناسبة ﴿قَالَ﴾ الذي حُكي به قول الشيطان في مطلع القضية، فتناسب المطلع والختام كما كان في التعبير بـ ﴿حَدِيثًا﴾ في الآية المشابهة لمناسبة المطلع والختام.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحج ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وفي سورة الزخرف ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [1] [الزخرف: ١٥] فعُدل عن نقص «مبين» إلى زيادته.

أما آية الحج فلم يقع فيها ولا فيما اكتنفها ما يناسب الزيادة اللفظية. وأما آية الزخرف فجاءت في مطلع قضية ختامها قوله تعالى ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾، فروعيت مناسبة هذا الختام بالعدول عن التشابه إلى زيادة ﴿مُبِينٍ﴾، قال تعالى

﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾ ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٥ - ١٨]

(١) انظر: العقد الجميل: ١٢٥.

والقضية كما هو واضح في حكاية افترائهم على الله أن الملائكة بناته، وفي الرد على ذلك.

٣ - في القصة :

ومن أمثلة العدول لمراعاة التناسب اللفظي بين مطلع القصة وختامها قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] وفي سورة الأعراف ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ (١) [الأعراف: ١٦٢] المتشابهان في قصة بني إسرائيل، وقد عُدل عن نقص ﴿مِّنْهُمْ﴾ إلى زيادته في الأعراف.

أما آية البقرة فلم يُحتج فيها إلى زيادة ﴿مِّنْهُمْ﴾، لأن مطلع القصة كما نبه الخطيب الإسكافي ومن تابعه خالٍ من زيادتها، وهو قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]

وأما آية الأعراف فزيد فيها ﴿مِّنْهُمْ﴾ لوقوع ﴿مِّن﴾ في مطلع القصة كما نبهوا، وهو قوله تعالى:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]

فناسب العدول إلى زيادته في الختام ليوافق المطلع في اللفظ، قال تعالى في الختام:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ .. ..﴾ (٢) [الأعراف: ١٦٢]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في آيتين من سورة يوسف ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣ و ١٠٠] وفي سورة الذاريات ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (٣) [الذاريات: ٣٠] فعُدل عن تقديم لفظ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ إلى تأخيره في الذاريات.

أما آيتا يوسف فجاءت أولاهما في أثناء قصته عليه السلام؛ وهي في قوله تعالى مخبراً عن يعقوب أبي يوسف عليهما السلام:

---

(١) انظر: درة التنزيل: ١٤ - ١٥، والبرهان: ١٢٤، وملاك التأويل: ١: ٥٨، وكشف المعاني: ٩٧ - ٩٨، والعقد الجميل: ١١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٨ - ١٩، والبرهان: ١٢٤، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ٩٣- ٩٤، وأبو حيان، البحر المحيط: ١: ٢٢٦، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٩، والآلوسي، روح المعاني: ١: ٢٦٨.

(٣) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٦٢.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]

وجاءت الثانية في ختام قصته؛ وهي في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]

وقد جاء هذا الختام بتقديم ﴿الْعَلِيمُ﴾ مناسباً لمطلع القصة الذي وقع فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وذلك في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: ٤ - ٦]

وأما العدول إلى تقديم لفظ ﴿الْحَكِيمُ﴾ في الذاريات فلأن الآية جاءت في ختام قصة وقع في مطلعها الوصف بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ متأخراً، والقصة هي تبشير الملائكة إبراهيم وزوجه - عليهما السلام - بغلام في قوله تبارك وتعالى:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٣٠]

فبهذا العدول إلى تأخير ﴿الْحَكِيمُ﴾ تناسب المطلع والختام، ولولا ذلك لفات التناسب.

٤ - في القصص:

ومن أمثلة العدول لمراعاة التناسب اللفظي بين مطلع مجموعة قصص وختامها قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وفي سورة المؤمنين ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [1] [المؤمنون: ٥٢] فعُدل عن التعبير بـ ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ إلى التعبير بـ ﴿فَاتَّقُونِ﴾.

---

(١) تقدم في العدول بالمبدلات اللفظية المتباينة.

قال أبو جعفر بن الزبير: «سورة الأنبياء لم يرد فيها لفظ التقوى في أمر ولا خبر من أولها إلى آخرها، وورد فيها الأمر بالعبادة من قوله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأما سورة المؤمنين فتكرر فيها ذكر التقوى في ثلاثة مواضع؛ أولها ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣] وثانيها القصة التالية لهذه ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢] وثالثها فيما بعد الآية المتكلَّم فيها ﴿قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧]. فروعي في الأولى ما تقدمها، ونوسب بالثانية ما اكتنفها»[1] أي أن التعبير بالعبادة في آية الأنبياء لمراعاة الآية التي تقدمها والمفصولة عنها بحوالي سبعين آية - :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

لأن هذه الآية هي مطلع لمجموعة قصص، ولكنها لم تتصل بها اتصالاً مباشراً، وإنما وقع بينهما اعتراض بحوالي عشرين آية في إثبات وحدانيته سبحانه وتقرير النبوة والمعاد، وبعد هذا ذكرت القصص من لدن قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ الآية [الأنبياء: ٤٨] وتبعتها قصص إبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وغيرهم إلى أن انتهت بذكر مريم وابنها - عليهما وعليهم السلام - وعقب ذلك جاء قوله:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

ختاماً لتلك القصص، فعُبر فيه بـ ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ ليناسب مطلعها الذي عبر فيه بذلك ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأما تنبيه أبي جعفر بن الزبير على أن العدول في آية المؤمنين لمناسبة ما اكتنفها من التعبير بالتقوى في ثلاثة مواضع فصحيح، ولكن ما يهمنا هنا هو أولها؛ لأنه وقع في مطلع مجموعة قصص، في الآية:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]

---

(١) ملاك التأويل: ٢: ٧٠٨، وانظر أيضاً: السيوطي، معترك الأقران: ٣: ٧٤.

فافتتحت القصص بقصة نوح عليه السلام، وتلتها قصص أخرى إلى أن انتهت بذكر مريم وابنها عليهما السلام، وعقب ذلك جاء قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢]

فكان هذا ختام تلك القصص التي عُبر في مطلعها بـ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، فناسب أن يُعبر في الختام بـ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ ولذلك عُدل إليه عما وقع في آية الأنبياء المشابهة، ليتناسب ختام القصص مع مطلعها هنا كما كان كذلك في سورة الأنبياء.

د - العدول عن التشابه لتجنب ثقل التكرر اللفظي :

تجنب ثقل تكرر اللفظ صورة من صور التناسب اللفظي، وهي لا تنافي صورة المشاكلة اللفظية، لأن التكرر قد يكون مستحسناً وقد يكون مستقبحاً، والعمدة في الحكم عليه بهذه الصفة أو تلك المعنى والمقام، قال الخطابي: «فإنَّ تكرر الكلام على ضربين: أحدهما مذموم؛ وهو ما كان مستغنىً عنه؛ غير مستفاد به زيادة معنىً لم يستفيدوه بالكلام الأول، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً، وليس في القرآن شيء من هذا النوع. والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يُحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويُخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها»[(١)].

والتكرر اللفظي في هذه الصورة مقيد بالمتقارب المستثقل الذي لا يحمل عليه حامل من المعنى كتعظيم أو تهويل كما ذكر أبو جعفر بن الزبير في بعض أمثلة هذه الصورة [(٢)].

وقد يكون هذا المتكرر لفظاً واحداً، وقد يتعداه إلى جملة كاملة مع التقارب - وهو أكثر ما وقعنا عليه من أمثلة لهذه الصورة - فيعدل القرآن عن التشابه ليتجنب ما استُثقل من تلك المكررات، وليحقق بذلك التناسب في النظم.

---

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٥٢.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ٨٩، و٢: ٧٤٢.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة الأنعام في آيتين متتاليتين ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] و ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨] وفي آية ثالثة من السورة نفسها بعيدة عن تينك الآيتين لم يذكرها أصحاب التوجيه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [1] [الأنعام: ١٢٦] فعُدل عن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلى ﴿يَفْقَهُونَ﴾ ثم إلى ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾.

وقد أبدى ابن المنيَّر [ت ٦٨٣ هـ] مناسبة العدول عن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلى ﴿يَفْقَهُونَ﴾ في الآيتين الأوليين، فقال: «لما أُريد فصل [كلتيهما] بفاصلة تنبيهاً على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة، كُره فصلهما بفاصلتين متساويتين في اللفظ، لما في ذلك من التكرار، فعُدل إلى فاصلة مخالفة تحسيناً للنظم واتساقاً في البلاغة»[2] ونقل ذلك عنه الآلوسي في تفسيره[3].

والظاهر أن كراهة التكرار هنا لكونه جملة طويلة في آيتين قصيرتين متتاليتين، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٧-٩٨] فلو كُرر ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في الثانية لكان ثقيلاً مع هذا التقارب، فتُجنب بالعدول.

أما الآية الثالثة التي وقع فيها ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ فلم يكتنفها ما هو تكرير لها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سبع آيات من سور ست ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢ و ١٦٠، والمائدة: ١١، والتوبة: ٥١، وإبراهيم: ١١، والمجادلة: ١٠، والتغابن: ١٣] وفي آية واحدة في سورة إبراهيم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] فعُدل عن ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول للتناسب اللفظي بين المطلع والختام، وثمة وجه آخر يتعلق بتجنب ثقل التكرر اللفظي، هذا موضعه.

---

(١) انظر: درة التنزيل: ١٢٥، والبرهان: ١٧٣، وملاك التأويل: ١: ٣٣٤، وكشف المعاني: ١٦٣، والعقد الجميل: ٣٣.

(٢) ابن المنيّر، الانتصاف: ٢: ٣٩، ووقع في الأصل كليهما ، والصواب ما أثبتنا.

(٣) انظر: الآلوسي، روح المعاني: ٧: ٢٣٦.

والوجه أن آية إبراهيم تفردت عن مشابهاتها بأن جاءت تكريراً لما وقع فيما تقدمها من قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١] فاستثقل التكرير المتقارب بلفظ واحد، فاقتضى التناسب تجنب ثقله بالعدول، فقيل ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، قال تعالى:

﴿. . .وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١ - ١٢]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام من سورتي طه والقصص ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾ [طه: ١١، والقصص: ٣٠] وعُدل عن ذلك إلى ﴿جَآءَهَا﴾ في القصة نفسها من سورة النمل ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾ (١) [النمل: ٨].

قال الكرماني مبتدئاً بآية سورة النمل: «لأنه قال في هذه السورة ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧] فكرر آتيكم، فاستثقل الجمع بينهما وبين ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، فعدل إلى قوله ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ بعد أن كانا بمعنىً واحد. وأما في السورتين فلم يكن إلا ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠، والقصص: ٢٩] فناسب أن يأتي بعده في كل منهما ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ [طه: ١١، والقصص: ٣٠]» (٢).

أي أن العدول في آية النمل لتجنب ثقل التكرر المتقارب لـ «آتيكم» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ ....﴾ الآية [النمل: ٧ - ٨]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في آيتين متتاليتين من سورة النور ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨] و﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩] وأضاف أصحاب التوجيه في أثناء توجيههم هاتين الآيتين آيتين أخريين من سورة النور أيضاً، وهما ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨] و﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٩٢ - ٢٩٣، والبرهان: ٢٨٥، وملاك التأويل: ٢: ٦٦٧ - ٦٦٨، والعقد الجميل: ١١٩ - ١٢٠.

(٢) البرهان: ٢٨٥ - ٢٨٦.

﴿ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [1] [النور: ٦١] فعُدل عن تعريف ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ بأل إلى تعريفها بالإضافة ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾ في آية واحدة من السورة.

قال أبو جعفر بن الزبير في الآيتين الأوليين: «والجواب أنه لما تقارب اللفظ الواحد عدل عن تكراره بلفظ واحد فيما تقارب، على عادة العرب في استثقالها تكرر اللفظ الواحد بعينه في بيت واحد من الشعر أو ما تقارب من الكلام ما لم يحمل على ذلك حامل من المعنى» [2]. والتقارب حاصل من قصر الفاصل بين المتشابهين في الآيتين، قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور: ٥٨ - ٥٩]

فعُدل عن التشابه لكيلا يتكرر اللفظ نفسه مع هذا التقارب، ولم يقع تكرار متقارب كهذا يستدعي العدول في الآيتين الأُخريين من السورة، فجاءت ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ فيهما معرفة بأل كما جاء في الآية المعدول عنها.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص:

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة تجنب ثقل التكرير قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] وقوله في أثناء الآية التي تلت هذه ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وزاد الكرماني قوله تعالى في آية البقرة الأخرى ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ [3] [البقرة: ١٩٦] فعُدل عن زيادة ﴿مِنكُمْ﴾ إلى نقصه في الآية الثانية.

والوجه كما نبه الكرماني - وتابعه السيوطي - أن الآية الثانية انفردت عن مشابهتيها بوقوع ﴿مِنكُمْ﴾ متقدماً عليهما مع التقارب في قوله تعالى:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]

---

(١) تقدم في العدول بمبدلات الصيغة التعريفية.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٧٤٢.

(٣) انظر البرهان: ١٣٦، وانظر الآيتين الأوليين في العقد الجميل: ٢٧.

فاكتفي بوقوع ﴿مِنكُمْ﴾ هنا مرة واحدة [1]، وعُدل إلى نقصه في الجملة اللاحقة لتجنب ثقل تكرره مع التقارب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وفي سورة فصلت ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى﴾ [2] الآية [فصلت: ٣٤] فعُدل عن زيادة لفظ ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ إلى نقصه في فصلت.

ووجهه أن آية فصلت تقدمها لفظ ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ قريباً، قال تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا﴾ الآية [فصلت: ٣٤]

فلو زيد اللفظ هنا فقيل: ادفع بالتي هي أحسن السيئة كما قيل في سورة المؤمنين لكان مستثقلاً، فتجنب هذا بالعدول عن التشابه بنقص اللفظ.

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر:

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لمراعاة تجنب ثقل ذلك التكرير قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] وفي سورة الكهف ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] فعُدل عن تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾ إلى تأخيره في الكهف. وقد بينا وجه مناسبة ذلك فيما يراعيه العدول من تناسب المشاكلة اللفظية، وثمة مناسبة أخرى، هذا موضع بيانها.

أما التقديم في الإسراء «فلثقل التكرر فيما تقارب، ولو قيل: ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، لجاء لفظ الناس كأنه قد أعيد متصلاً، والعرب تستثقل مثل هذا، فقدم المجرور ليستحكم الفصل فلا يُستثقل»[3].

وأما آية الكهف «فلم يتكرر فيها لفظ الناس فيقع استثقال، فقدم قوله ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لأن تقديمه أهم، إذ هو أبلغ في تنبيههم على الاعتبار» [4].

---

(١) انظر: البرهان: ١٣٦ - ١٣٧، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٣٩٤.
(٢) انظر: العقد الجميل: ١٢٦.
(٣) ملاك التأويل: ٢: ٦٣٠.
(٤) السابق، والصفحة نفسها.

يتبين مما تقدم تفصيله أن العدول عن التشابه مقصود به تحقيق التناسب اللفظي في النظم؛ بالمشاكلة أو الموافقة أو بتناسب المطلع والختام أو بتجنب ثقل تكرر اللفظ، أو بأكثر من صورة من هذه الصور؛ ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأخص به الأنسب له من آيته أو سورته، لأن تلك الصور - وإن تباينت خصائصها الفنية المقصودة بالعدول - لا تخرج عن نوعين من التناسب اللفظي: قريب وبعيد.

ثانياً : العدول عن التشابه للتناسب الصوتي :

يعدل القرآن عن التشابه مراعاة لصور متنوعة من التناسب الصوتي، يمكن إجمالها في أربع؛ تناسب المشاكلة، وتجنب ثقل المجاورة الصوتية، وتناسب الموازنة، والتناسب في المقدار. وسنتتبع مراعاة العدول لكل منها على حدة كما فعلنا فيما تقدم من مراعاته لصور التناسب اللفظي.

أ - العدول عن التشابه لتناسب المشاكلة الصوتية :

سنتناول هذه الصورة من وجهين؛ الأول صوتي محض؛ يتجلى فيما يراعيه العدول من مشاكلة الصوت للصوت، والثاني صوتي معنوي؛ يتجلى فيما يراعيه من مشاكلة الصوت للمعنى، والغرض من ذلك بيان أن العدول يراعي حسن البيان بالتناسب الصوتي والمعنوي على السواء؛ بأن ينزل الكلمة المعدول إليها منزلها المناسب لها من جهة الصوت والمعنى، من غير أن يحيف أحدهما على الآخر

- العدول عن التشابه لمشاكلة الصوت للصوت :

ومرادنا بمشاكلة الصوت للصوت تماثل الأصوات في الشكل؛ حروفاً كانت أو حركات. وقد استُعملت بهذا المعنى في الدراسات القرآنية؛ فقد ذكر الزركشي أن من مشاكلة اللفظ للفظ قوله تعالى - في قراءة من قرأ - ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦] على أن جر ﴿أَرۡجُلِكُمۡ﴾ لمجاورته المجرور﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾ ومشاكلته له لا لعطفه عليه. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى - في قراءة من قرأ - ﴿الحمدِ لِله﴾ [الفاتحة: ٢] فجر الدال لمشاكلة اللام المجرورة[1]. وحقيقة هذه المشاكلة صوتية كما هو واضح. ومع أنها كما يظهر

(١) انظر: الزركشي: البرهان: ٣: ٣٧٧.

من أمثلتها مقصورة على مخالفة القياس، فإننا سنتجوز هنا بإطلاقها على كل تشاكل صوتي خالف القياس أم وافقه.

وجدير بالذكر أن العدول بمراعاته للمشاكلة الصوتية إنما يراعي جمال الإيقاع، لأن مدار هذه المشاكلة على تكرير الأصوات، ولهذا شأنه في براعة القول وموسيقاه، قال بعض المعاصرين: «وعلى قدر الأصوات المكررة تتم موسيقى الشعر وتكمل، وقد عدّ القدماء الأصوات المكررة براعة في القول لولا ما دخل هذه الكثرة في العصور المتأخرة من تكلف أخرجها عن حسن القول» [1].

وقال آخر: «إذا تكرر الحرف في الكلام على أبعاد متقاربة أكسب تكرار صوته ذلك الكلامَ إيقاعاً مبهجاً، يدركه الوجدان السليم حتى عن طريق المعنى، فضلاً على إدراكه السمعي بالأذن، وأقول: على أبعاد متقاربة؛ تفادياً للإكثار المفسد، والمتباعد الذي يفقد التكرار قيمته الصوتية الناشئة عن سرعة التردد»[2] ثم قال: «وتكرار الحرف على هذه الأبعاد يحسن حسناً كبيراً إذا جاء بطريق التداعي غير متكلف له، بحيث يتسق [مع] المعنى اتساقاً يشغل النفس عن أن جانباً كبيراً من حسن العبارة راجع إلى التكرار، وإنما يظهر ذلك عند التأمل» [3].

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة ذلك التناسب قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] وفي سورة غافر ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [4] [غافر: ٦٤] فعُدل عن ﴿فِرَٰشًا﴾ إلى ﴿قَرَارًا﴾.

ومناسبة ذلك أن آية غافر تكرر فيها صوت الراء ضعف مرات تكرره في آية البقرة، فلما عُبر في آية البقرة بـ ﴿فِرَٰشًا﴾ وفيه راء واحدة، ناسب أن يُعدل في آية غافر إلى ﴿قَرَارًا﴾ الذي فيه راءان، قال تعالى في آية البقرة:

---

(١) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٢٤٦.
(٢) السيد، د. عز الدين، التكرير بين المثير والتأثير: ٤٥.
(٣) السابق: ٤٦، وزدنا مع لاقتضاء السياق لها.
(٤) انظر: العقد الجميل: ٥.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

وقال في آية غافر :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة يونس ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [يونس: ٩٠] وفي سورة طه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [1] [طه: ٧٨] فعُدل عن العطف بالواو إلى الجر بالباء.

أما التعبير بالواو فمشاكل لقوله فيما اتصل بالآية ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾، قال تعالى:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ الآية [يونس: ٩٠]

ولم يقع في سياق آية طه ما يستدعي المشاكلة في الواو، بل تقدمها ما يستدعي التشاكل في الباء؛ وهو ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾، قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٧ - ٧٨]

فعُدل إلى الجر بالباء ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ لمشاكلة ﴿بِعِبَادِى﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ٦١] وفي سورة آل عمران ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٢١] وفي آية أخرى من السورة نفسها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ [2] [آل عمران: ١١٢] فعُدل عن التعبير بجمع السلامة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى التعبير بجمع التكسير ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾.

قال الكرماني: «وجمع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمع السلامة في البقرة لموافقة ما بعده في جمع السلامة؛ وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾ [البقرة: ٦٢] و﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢]. وكذلك في آل عمران ﴿ٱلَّذِينَ﴾ [آل عمران: ٢١ و ٢٢ و ٢٣] و﴿نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢] و﴿مُّعْرِضُونَ﴾

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ١٩٧.
(٢) انظر: البرهان: ١٢٥، وملاك التأويل: ١: ٧٠، والعقد الجميل: ١٣.

[آل عمران: ٢٣]» [١] وهذه إشارة منه إلى المشاكلة الصوتية في الياء والنون بين ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وبين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ و ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ في آية البقرة وما تلاها، قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا.....﴾ الآية [البقرة: ٦١ - ٦٢]

وكذلك الإشارة إلى المشاكلة الصوتية بين ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وبين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ و﴿نَّٰصِرِينَ﴾ و﴿مُّعْرِضُونَ﴾ في آية آل عمران الأولى وما تلاها، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢١ - ٢٣]

فالمشاكلة بين ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وبين هذه الكلمات المنتهية بياء ونون واضحة، وليس في إدخال ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ في هذه المشاكلة ما يعكر على ذلك؛ لأن بين ياء المد وواو المد شبهاً صوتياً يسوّغ تناوبهما باستحسان بخلاف ألف المدة فقد «تناوبت واو المد وياء المد مكان إحداهما الأخرى، ولم يحسّ الشعراء في هذا بأي غرابة، وألف المد هي الوحيدة بين الحركات التي إذا جاءت قبل الروي التُزمت في كل الأبيات، لأنها أوضح كل الحركات في السمع» [٢].

وقد اكتفى الكرماني بالإشارة إلى مناسبة التعبير بـ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ في آيتي البقرة وآل عمران الأولى، فلم يبين مناسبة العدول إلى ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ في آية آل عمران الثانية، والمناسبة هي المشاكلة الصوتية في مد الألف المتلو بهمزة بين ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ و﴿سَوَآءٌ﴾ و﴿قَآئِمَةٌ﴾ و﴿ءَانَآءَ﴾ في قوله تعالى:

---

(١) البرهان: ١٢٦.

(٢) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٢٦٥، ومراده بـ "كل الحركات" الحركات القصيرة المعروفة: الفتحة والكسرة والضمة، والحركات الطويلة الناشئة عنها: الألف والياء والواو، كما ذكر في الصفحة: ٢٦٥.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢ - ١١٣]

وذلك لأن مجيء الهمز بعد ألف مد في كلمة واحدة يوجب المد بمقدار خمس حركات، وعند بعضهم بمقدار أربع[1]، والمهم أن وقوع هذه الكلمات الممدودة مداً متصلاً طويلاً استدعى العدول عن التشابه إلى التعبير بـ ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ لما فيه من مد متصل طويل مشاكل لمد تلك الكلمات.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في أولى آيتين من سورة البقرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا﴾ [البقرة: ١٥٩] وفي الثانية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[2] [البقرة: ١٧٤] فعُدل عن الإضمار في ﴿أَنزَلْنَا﴾ إلى الإظهار في ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

أما الإضمار فمشاكل لما ورد في الآية من أصوات النون المتبعة بألف المد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٩]

ولم يقع في سياق الآية المشابهة ما يستدعي المشاكلة في الإضمار، وإنما وقع فيها قريباً من الاسم المظهر ﴿ٱللَّهِ﴾ لفظُ ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وفيه ألف مد متبعة بحركة الباء، فناسب العدول إلى الإظهار، لأن في لفظ «اللاه» ألفاً متبعة بحركة الهاء، ولا سيما أن صوت الكسرة التي هي حركة الباء، وصوت الضمة التي هي حركة الهاء، متشابهان تشابهاً جعل القدماء يستحسنون تناوب أحدهما مع الآخر، فبهذا التقارب بين الصوتين مع ألف المد راعى العدول المشاكلة في قوله تعالى:

---

(١) انظر: الزحيلي، د. وهبة، قواعد التجويد؛ ضمن الموسوعة الميسرة: ٦١٩ - ٦٢٠. ومقدار الحركة يعادل "ما يقبض الإنسان إصبعه أو يبسطها بحالة وسطى": السابق: ٦١٨.

(٢) انظر: العقد الجميل: ٢٥.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [البقرة: ١٧٤]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] وفي سور يوسف وص والتكوير ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، وص: ٨٧، والتكوير: ٢٧] وقد تقدم هذا المثال في تناسب الموافقة اللفظية، وذكرنا هناك أن العدول في ظاهره عن صيغة التأنيث ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إلى صيغة التذكير ﴿ذِكْرٌ﴾.

ووجه التناسب الصوتي هنا هو المشاكلة في الراء المفتوحة المفخمة بين ﴿ذِكْرَىٰ﴾ و﴿أَجْرًا﴾ في آية الأنعام، قال تعالى:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]

وثمة وقف جائز على ﴿أَجْرًا﴾ مشار إليه بـ « صلى»[1] يحيل التنوين ألفاً كألف ذكرى فتكون المشاكلة أوضح.

وللمشاكلة الصوتية أيضاً عُدل إلى صيغة التذكير ﴿ذِكْرٌ﴾ في آيتي يوسف وص، لأنه جاء في سياقهما ﴿أَجْرٍ﴾ مكسوراً منوناً لا مفتوحاً كما كان في سياق آية الأنعام، قال تعالى في آية يوسف:

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]

وقال في سورة ص:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦ - ٨٧]

وبين الضمة والكسرة شبه صوتي استحسن القدماء لأجله تناوب إحداهما مع الأخرى فيما قبل الروي في الشعر كما ذكرنا قريباً، ولم يستحسنوا التناوب مع الفتحة[2]. وهذا محسوس بوضوح فيما لو افترضنا وقوع ﴿أَجْرًا﴾ المنصوب في سورتي يوسف وص، مما يدل دلالة بينة على أن العدول مراعىً به تلك المشاكلة الصوتية في الراء المضمومة والراء المكسورة من ﴿أَجْرٍ﴾ و﴿ذِكْرٌ﴾ في الآيتين.

---

(١) صلى علامة من علامات جواز الوقف في القرآن، تدل على أن الوصل أولى مع جواز الوقف. انظر: نسخة القرآن الكريم المطبوعة بمؤسسة علوم القرآن الكريم، منار للنشر والتوزيع، انظر منها: علامات الوقف ومصطلحات الضبط: ٦١٢.

(٢) انظر: أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٢٦٥ - ٢٦٦.

أما آية التكوير فلم يقع في سياقها لفظ ﴿أَجْرٌ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦] وفي سورة المؤمنين ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾[1] [المؤمنون: ٢١] فعُدل عن التعبير بضمير التذكير ﴿بُطُونِهِۦ﴾ إلى ضمير التأنيث ﴿بُطُونِهَا﴾.

أما آية النحل فالتذكير فيها مناسب للألفاظ الواردة بصيغة التذكير، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]

وأما العدول إلى التأنيث في آية المؤمنين فلمشاكلة صوتية نبه عليها أبو جعفر بن الزبير بقوله «وورد في سورة المؤمنين على التأنيث والجمع لما بني على ذلك من قوله ﴿نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون [٢١] وعليها وعلى الفلك تُحملون﴾ [المؤمنون: ٢١ - ٢٢] فنوسب بضمير الأنعام ما أُتبع به من الضمائر في قوله ﴿فِيهَآ﴾ و﴿مِنْهَا﴾ و﴿عَلَيْهَا﴾، فورد بصيغة التأنيث والجمع»[2].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] وفي سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[3] [التحريم: ١٢] فعُدل عن التعبير بضمير التأنيث ﴿فِيهَآ﴾ إلى ضمير التذكير ﴿فِيهِ﴾.

نبه أبو جعفر بن الزبير على أن التعبير بالتأنيث في آية الأنبياء للمشاكلة، لأنه جاء بين أصوات الهاء الممدودة في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ .. ..﴾ الآية [الأنبياء: ٩١].

---

(١) تقدم في العدول بمبدلات الصيغة التذكيرية.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٦١١.

(٣) تقدم في العدول بمبدلات الصيغة التذكيرية.

ورأى أبو جعفر أنه ليس في آية التحريم داعية تشاكل يعبر لأجلها بالتأنيث كما في آية الأنبياء المشابهة فعُبر فيها بضمير المذكر[1]. وهو صحيح، بيد أن في آية التحريم تشاكلاً صوتياً في الهاء المفتوحة فالمكسورة بين ﴿فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ و﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾، قال تعالى:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

فروعيت هذه المشاكلة الصوتية بالعدول إلى ضمير التذكير، ولم تكن لتقع لو جاء الضمير مؤنثاً.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المدّثر ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤- ٥٥] وفي سورة عبس ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[2] [عبس: ١١ - ١٢] فعُدل عن ضمير المذكر ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى ضمير المؤنث ﴿إِنَّهَا﴾.

ومناسبة ذلك هي المشاكلة الصوتية في سياق كل من المتشابهين، لأن آية المدثر وردت في سياق كثر فيه صوت الضمة والواو - وهما من جنس واحد - فجاء التعبير بضمير المذكر المضموم الهاء ﴿إِنَّهُۥ﴾ مناسباً لذلك، قال تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥٦].

ولم يكن سياق آية عبس بهذه الصفة، وإنما كثر فيه صوت الفتحة والألف - وهما من جنس واحد - فاستدعى التشاكل هنا العدول عن التشابه إلى التعبير بضمير المؤنث المفتوح الهاء ﴿إِنَّهَا﴾، قال تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٧٠٥.
(٢) انظر: البرهان: ٣٥٢، والعقد الجميل: ١٤٧.

تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١- ١٦].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] وفي سورة الأعراف ﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [1] [الأعراف: ٩٤] فعُدل عن الفك ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى الإدغام ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾.

أما الفك فنبه الكرماني وأبو جعفر بن الزبير على أنه مراعىً به مناسبة ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ في قوله تعالى:

﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ .. ..﴾ الآية [الأنعام: ٤٢ - ٤٣]

لأن الماضي ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ لا إدغام فيه[2].

وأما مناسبة العدول إلى الإدغام في آية الأعراف فنبه عليها صاحب المناجاة فيما نقله عنه السيوطي بأنه «لما وقع في الأعراف ذكر النبي مدغماً، والمدغم أخف، ناسبه بإدغام ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾»[3] أي أن المناسبة هي التشاكل الصوتي في الإدغام بين ﴿نَّبِىٍّ﴾ و ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]

وواضح أن هذه المشاكلة لا تقتصر على الإدغام في الكلمتين، بل هي حاصلة في هذه الكلمات التي أشرنا إليها بالتشديد، فقويت مناسبة العدول إلى الإدغام هنا، بخلاف سياق آية الأعراف المشابهة فإن الأصوات المدغمة فيه أقل، فكان مجيء ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ فيه مفكوكاً أنسب من هذا الوجه، قال تعالى:

---

(١) انظر: البرهان: ١٧١، وملاك التأويل: ١: ٣٢٦، والعقد الجميل: ٦٦.

(٢) انظر: البرهان: ١٧١، وملاك التأويل: ١: ٣٢٧. وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٧٨، وفيه نقل عن الكرماني توجيهه.

(٣) السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٧٨.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٌ﴾ [الأعراف: ١٧٨] وفي سورتي الإسراء والكهف ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾[1] [الإسراء: ٩٧، والكهف: ١٧] فعُدل عن التمام بإثبات الياء في ﴿ٱلْمُهْتَدِىٌ﴾ إلى نقصها من ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾.

وليس في آية الأعراف ما يستدعي المشاكلة في نقص الياء. أما آيتا الإسراء والكهف ففي كل منهما لفظان قريبان يطلبان تلك المشاكلة؛ لأن في كل لفظ منهما دالاً متحركة، فصارت الدالان في كل آية طالبتين للعدول إلى نقص الياء من ﴿ٱلْمُهْتَدِىٌ﴾ من حيث كان الوقف على الكلمة في هذه الحال - وهو جائز مشار إليه بـ - يوجب قلقلة الدال؛ أي شدة الضغط على مخرجها حتى يخرج مع صوتها صُوَيت [2]، فهو كما تبين الدراسات الصوتية الحديثة تطويل لصوت الدال مع إتباعها بصوت لين قصير جداً شبيه بالكسرة[3]، فصارت دال ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ أشبه بصوتين متبوعين بصوت لين، فتناسب هذا مع الدالين المتبوعتين بصوت لين في كل من آيتي الإسراء والكهف، قال تعالى في آية الإسراء:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ الآية [الإسراء: ٩٧].

وقال في آية الكهف:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]

والمشاكلة حاصلة سواء نُظر إلى هذا التوازن أم لم ينظر إليه كما هو واضح، ولم يقع مثل ذلك في آية الأعراف، قال تعالى:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٌ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

---

(١) انظر: البرهان: ٢٠١، والعقد الجميل: ٨٦.
(٢) انظر: سيبويه، الكتاب: ٤: ١٧٤.
(٣) أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ١٥٦.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وفي سورة الحج ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ﴾ [1] [الحج: ٥٢] فعُدل عن نقص لفظ ﴿نَّبِيّٖ﴾ إلى زيادته في آية الحج.

ووجه المشاكلة الصوتية أن آية الأنبياء لم تكثر فيها الأصوات المدغمة كثرتها في آية الحج، فناسب أن يعدل إلى زيادة لفظ ﴿نَّبِيّٖ﴾ المدغم الياء في آية الحج، قال تعالى في آية الأنبياء:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وقال في آية الحج:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحج: ٥٢].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت: ٢٢] وفي سورة الشورى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [2] [الشورى: ٣١] فعُدل عن زيادة ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى نقصه.

أما الزيادة فاستدعتها المشاكلة الصوتية في ألف المد المتبوع بالهمز بين ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وبين ﴿يَشَآءُ﴾ و﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، من قوله تعالى:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي..﴾ الآية [العنكبوت: ٢١ - ٢٢]

---

(١) انظر: العقد الجميل: ١٠١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٥١، و البرهان: ٢٩٥، وملاك التأويل: ٢: ٧٦٦، وكشف المعاني: ٢٨٩، والعقد الجميل: ١٣١.

فالمد في كل من هذه الكلمات بمقدار خمس حركات أو أربع كما تقدم في مثال سابق. على أن أوضح شيء في هذه المشاكلة هو ما بين ﴿يَشَآءُ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ولا سيما أن ثمة وقفاً جائزاً عليهما يجعلهما فاصلة داخلية متوازنة.

وأما آية الشورى فليس فيما اكتنفها ما يستدعي تلك المشاكلة، فناسبها العدول إلى نقص ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٠ - ٣٢]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦] وفي سورة المجادلة ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [1] [المجادلة: ١٧] فعُدل عن زيادة الواو في آل عمران ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى نقصها في المجادلة.

ووجه التناسب في ذلك هو المشاكلة الصوتية في كلا المتشابهين؛ لأن آية آل عمران اكتنفها آيات خُتمت كل منها بجملة معطوفة بالواو، قال تعالى:

﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٧]

على أنه ثمة موضعان يجوز عليهما الوقف في الآية، مع أولوية الوصل؛ مشار إليهما بـ « صلى »؛ هما ﴿شَيْـًٔا﴾ و﴿ٱلنَّارَ﴾، ومن البيّن أنه لا يصح الوجه الذي ذكرناه إلا بالوقف على ﴿شَيْـًٔا﴾ وبوصل ﴿ٱلنَّارَ﴾ بـ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

---

(١) انظر: العقد الجميل: ٣٨، وقد اقتصر الكرماني في البرهان: ٣٤٤ على آية المجادلة.

أما العدول إلى نقص الواو في آية المجادلة فنبه الكرماني على أنه لمشاكلة الجمل التي قبل الآية، لأنها ليس فيها واو، وهي في قوله تعالى:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٥ - ١٧].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في قصة صالح - عليه السلام - من سورة الشعراء ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤] وفي قصة شعيب - عليه السلام - من سورة نفسها ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [1] [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦] فعدل عن نقص الواو من الأولى إلى زيادتها في الثانية.

نبه أبو جعفر بن الزبير على أن ذلك للمناسبة الصوتية في كل من المتشابهين، فقال: «والجواب عنه - والله أعلم - أن ذلك لرعي المناسبة؛ بيان ذلك ما ثبت قبل الآية الثانية من قوله تعالى حكاية لما عَدّ شعيب في أمر قومه وذكر من مرتكباتهم في قوله: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٤] فهذه خمس معطوفات من مأمور به ومنهي عنه، طابقها العطف في جوابهم من قوله تعالى حكاية عنهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦] فهذه مناسبة واضحة. ولما تقدم في قصة صالح عليه السلام قوله ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٥٢] فلم يقع في هذه القصة من المعطوفات أمراً ونهياً سوى قوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥١]

(١) تقدم في العدول بالمبدلات الحرفية العاطفة.

فناسب ذلك ورود جوابهم في دعوى المماثلة في البشرية بغير حرف النسق، فقالوا ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] بخلاف الآية الثانية»[1].

وقد يُعترض على ما أبداه أبو جعفر بوقوع الواو مراراً في قصة صالح كما وقعت في قصة شعيب عليهما السلام؛ فالقصتان تستدعيان المشاكلة، وليست آية العدول أولى بذلك من مشابهتها. والجواب أن تكرر الواو في قصة صالح عليه السلام جاء على أبعاد متفاوتة؛ فهو تارة متقارب جداً نحو ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ﴾ [الشعراء: ١٤٧ - ١٤٨] وتارة متباعد نحو ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢] وبهذا التفاوت لم تقو داعية المشاكلة هنا كما قويت في قصة شعيب - عليه السلام - فكان الأنسب نقص الواو من قصة صالح في قوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤]. أما قوة داعية المشاكلة في قصة شعيب - عليه السلام - فلأن تكرر الواو فيها جاء على أبعاد متقاربة، قال تعالى حكاية عن شعيب - عليه السلام - :

﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٤]

فكان العدول عن التشابه بزيادة الواو مشاكلاً لذلك، وهو أنسب شيء، ولا سيما أن العطف بالواو قد وقع في جملة أخرى عقب الجملة التي وقع فيها العدول، وكانت هاتان الجملتان متقاربتين في الطول إضافة إلى جملة سبقتهما، وذلك في قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦]

والظاهر أن هذا التقارب هو الذي جعل أبا جعفر ينبه على وقوع المشاكلة في هذه القصة دون القصة السابقة، ويؤكد ذلك أنه لم ينبه إلا على تكرر العطف في الجمل التي ورد فيها الأمر والنهي، وهي التي يظهر فيها التقارب في أوضح صورة. ومهما يكن من أمر فإن تدقيق النظر في هذه المشاكلة يبين أنه لولا العدول هنا لاختل التناسب وتنافر الإيقاع.

---

(١) ملاك التأويل: ٢: ٧٤٩ - ٧٥٠.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النساء ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣] وفي سورة التوبة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [1] [التوبة: ٨٩] فعُدل عن زيادة الواو في ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إلى نقصها من آية التوبة.

أما الزيادة فنبه الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرماني - على أنها لمناسبة ختم الآية التالية للموجَّهة بجملة دخلتها الواو؛ وهي ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. وزاد الكرماني أنها لمناسبة دخول الواو على الجملة الواقعة في مطلع الآية الموجَّهة؛ وهي ﴿وَمَن يُطِعِ﴾. وزاد السيوطي فيما نقله عن الكرماني أنها لمناسبة دخول الواو على الجملة الواقعة في مطلع الآية التالية للآية الموجَّهة؛ وهي ﴿وَمَن يَعْصِ﴾ [2]، قال تعالى:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣- ١٤]

فالمشاكلة ظاهرة بين مطلع الآيتين وتعقيبهما.

وأما العدول إلى نقص الواو من آية التوبة فنبه الكرماني على أنه لمناسبة مطلع الآية؛ لأنه بغير واو[3]، قال تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٩]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وفي سورة فاطر ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [4] [فاطر: ٣٩] فعُدل عن نقص الجار إلى زيادته.

---

(١) انظر: درة التنزيل: ١٠٠ - ١٠١، و البرهان: ١٥٣، وملاك التأويل: ١: ١٩٣ .
(٢) انظر: درة التنزيل: ١٠٤، و البرهان: ١٥٤، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٦٩٣ .
(٣) انظر: البرهان: ١٥٤، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٦٩٣.
(٤) انظر: درة التنزيل: ٣٨٨، والبرهان: ١٧٩ - ١٨٠، وملاك التأويل: ١: ٣٥٨، وكشف المعاني: ١٧٢ - ١٧٣ و ٣٠٣، والعقد الجميل: ٧٤.

وليس في آية الأنعام داعية مشاكلة يزاد لأجلها الجار «في». أما في آية فاطر فاستدعى زيادتها المشاكلة في الفاء؛ لأنها تكررت تكرراً متقارباً منسّقاً مثنى مثنى، فاقتضى ذلك العدول إلى زيادتها لتكون مع فاء ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ مشاكلة للوارد في الآية، قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]

ولولا هذا العدول لاختل التناسب الصوتي هنا. أما آية الأنعام فليس في سياقها ما يطلب مثل هذه المشاكلة كما أشرنا، ويتضح هذا بالمقارنة بين الآيتين، قال تعالى في آية الأنعام:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لمراعاة مشاكلة الصوت للصوت قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] وفي سورة الأعراف ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ (١) [الأعراف: ١٦١] فعُدل عن تقديم الأمر بالسجود في البقرة إلى تأخيره في الأعراف.

أما تقديمه فلمشاكلة ﴿سُجَّدًا﴾ لـ ﴿رَغَدًا﴾ في الدال المنصوبة، قال تعالى:

﴿لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ وَإِنْ تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾.... ﴾ الآية [البقرة: ٥٨]

وكان يمكن تأخير الأمر بالسجود كما وقع في آية الأعراف مع حصول المشاكلة، إلا أن ما جاء عليه النظم أنسب؛ لأن الإدغام الحاصل من نون التنوين في واو العطف من ﴿رَغَدًا و﴾ حال الوصل، مشاكلٌ للحاصل من نون التنوين في واو العطف من ﴿سُجَّدًا و﴾، مع حصول المشاكلة في صوت الدال، ولو أُخر الأمر بالسجود لفاتت المشاكلة في الإدغام

(١) تقدم في العدول بمقدم ومؤخر المتعاطفين من الجمل.

- وإن بقيت في صوت الدال - لأنه حينئذ يكون إدغاماً لنون التنوين في النون من ﴿سُجَّدًا نَّغْفِرْ﴾؛ وهو إدغام كامل ثقيل، بخلاف السابق فإنه ناقص خفيف[1].

وأما تأخير الأمر بالسجود في آية الأعراف فروعيت بالعدول إليه مشاكلة ﴿شِئْتُمْ﴾ لـ ﴿حِطَّةٌ﴾، قال تعالى:

﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ....﴾ الآية [الأعراف: ١٦١]

فالمشاكلة في التاء المضمومة من الكلمتين، مع ما بين الميم الساكنة في ﴿شِئْتُمْ﴾ ونون التنوين الساكنة في ﴿حِطَّةٌ﴾ من التقارب، ولولا العدول بتأخير الأمر بالسجود لفات هذا التشاكل، فإنه لا يبقى إذ ذاك إلا التقارب بين التاء من ﴿شِئْتُمْ﴾ والدال من ﴿سُجَّدًا﴾.

- العدول عن التشابه لمشاكلة الصوت للمعنى :

نريد بمشاكلة الصوت للمعنى مناسبته له في القوة والرقة، والطول والقصر، ونحو ذلك.

ولم يتعرض أصحاب توجيه المتشابه لهذا اللون من التناسب إلا تلميحاً في مواضع نادرة[2]. ولم يُعن به القدماء العناية اللائقة، وقد أشار إليه بعضهم إشارة عامة؛ نحو قول ضياء الدين بن الأثير [ت ٦٣٧ هـ]: «الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه؛ فالجزل منها يُستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك»[3] فهو يريد صوت اللفظ، لأنه بيّن ما يعنيه بالجزالة والرقة بقوله: «أعني بالجزل أن يكون متيناً؛ على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع. وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً سَفْسفاً، وإنما هو اللطيف، الرقيق الحاشية، الناعم الملمس»[4].

---

(١) انظر: الزحيلي، د. وهبة، قواعد التجويد؛ ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٦٢٣.
(٢) انظر على سبيل المثال: ملاك التأويل: ٢: ٦٥٥، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٧٨.
(٣) ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ١٨٥.
(٤) السابق: ١: ١٨٥ - ١٨٦.

ولهذا التناسب قيمة كبيرة في موسيقى الكلام، جعلت بعض المعاصرين يرى مراعاته المراعاة المطلوبة في الشعر كمالاً مطلقاً في موسيقاه [١]. وإذا كانت له هذه القيمة فطبيعي أن يكون مراعىً في القرآن الكريم، وقد أشار بعض المعاصرين إلى هذه المراعاة فيه، فقال: «وقد شارك الصوت الفكرة في القرآن مشاركة فعالة معبرة عن الانسجام بين الشكل والمضمون»[٢] وطبيعي بعد هذا أن نجد ذلك التناسب مراعىً في العدول عن التشابه، بل أن نجده أوضح ما يكون في هذا العدول.

وقبل أن نشرع في التمثيل نستحسن أن نقدم بين يديه بعض الضوابط التي سنعتمدها في تحليل الأمثلة، وضعها باحث معاصر في دراسته لموسيقى الشعر، وهي صالحة هنا لأن مدارها على أصول صوتية عامة لا تختص بالشعر وحده، منها تقسيمه الحروف إلى قسمين أحدهما يناسب المعنى من حيث العنف والآخر من حيث الرقة، قال: «وكما قُسم المعنى إلى عنيف ورقيق، يمكن أن تقسم الحروف إلى قسمين: أحدهما ينسجم مع المعنى العنيف، والآخر يناسب المعنى الرقيق الهادئ، ومرجع هذا التقسيم في الحروف صفاتها ووقعها في الآذان»[٣] ثم حدد الحروف المناسبة للمعاني العنيفة، فقال: «وربما كانت الأحرف الآتية أنسب الحروف للمعاني العنيفة: الخاء، القاف، الجيم، الضاد، الطاء، الظاء، الصاد. فإذا كثرت في ألفاظ الشعر ولم تكن كثرتها مما يُستقبح أو مما تنطبق عليه ضوابط تنافر الحروف مجتمعة، أحسسنا في موسيقى هذا الشعر بقوة وعنف لا نحس بهما مع غيرها من الحروف»[٤].

ومن هذه الضوابط أن «أسهل الكلمات نطقاً تلك التي تتركب من الأحرف الآتية: اللام، النون، الميم، الدال، التاء، الباء، أحرف المد»[٥].

---

(١) انظر: أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٤٣.
(٢) ياسوف، د. أحمد، جماليات المفردة القرآنية: ٢٠٥.
(٣) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٤٣.
(٤) السابق، والصفحة نفسها.
(٥) السابق: ٣٣.

ومنها أن ثمة حروفاً تحتاج إلى جهد عضلي زائد، قال: «فيمكن بوجه عام أن نعد الحروف الآتية من التي تحتاج إلى ذلك الجهد العضلي - وإن كانت تتفاوت في هذا - : حروف الحلق: الهمزة، الهاء، العين، الحاء، الخاء، الغين. حروف أقصى اللسان: القاف، الكاف. حروف وسط اللسان: الجيم، الشين. حروف الإطباق: الصاد، الضاد، الطاء، الظاء»[1].

ومنها أيضاً أن الكلمات الكثيرة الحروف تتطلب مجهوداً عضلياً أكثر، ولاسيما إذا كان فيها حرف أو اثنان مما يحتاج ذلك المجهود، قال: «فجميع الكلمات الكثيرة الحروف يمكن أن تعد بوجه عام من الكلمات الصعبة، ذلك لأنها تتطلب جهداً عضلياً أكثر»[2]. ثم قال: «ويزيد من صعوبة الكلمة الكثيرة الحروف أن تتضمن حرفاً أو حرفين من تلك التي تحتاج إلى مجهود عضلي أكثر، مثل: القاف، أو [حرف] الإطباق، وبعض حروف الحلق، والزاء»[3].

ومنها أن الأحرف المهموسة يتطلب النطق بها جهداً أكبر مما يتطلبه النطق بالمجهورة، ولا سيما إذا وقعت في كلمة كثيرة الحروف، قال: «الأحرف المهموسة تحتاج للنطق بها إلى قدر أكبر من هواء الرئتين مما تتطلبه المجهورة، فالأحرف المهموسة مجهدة للتنفس»[4] ثم قال: «فإذا تصادف أن اشتملت الكلمة الكثيرة الحروف على عدد من الأحرف المهموسة عُدت من الكلمات المجهدة الثقيلة إلى حد ما»[5].

ومنها أن «الأحرف الانفجارية التي كان القدماء يسمونها بالشديدة كالتاء والدال والكاف والباء والجيم القاهرية أسهل من نظائرها الرخوة كالسين والزاء والشين والفاء والجيم الكثيرة التعطيش»[6].

تلك هي أهم الضوابط التي نحتاج إليها في التمثيل لما يراعيه العدول من مشاكلة الصوت للمعنى.

---

(١) السابق: ٣٥.
(٢) السابق: ٣١.
(٣) السابق، والصفحة نفسها، وما بين قوسين كذا هو في الأصل، ولعل صوابه حروف.
(٤) السابق: ٣٢.
(٥) السابق، والصفحة نفسها.
(٦) السابق: ٣١ - ٣٢.

ونستحسن الإشارة إلى أننا لن نكتفي في تحليل الأمثلة بالنظر في أصوات الكلمتين المعدول عنها وإليها - وإن كان هذا قد يفي بالغرض - بل سننظر في أصوات الكلمات الواقعة في سياقهما لتأكيد سلامة الاستنتاج، وزيادة الاطمئنان إلى صحة الوجه المناسب.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذا اللون من التناسب قوله تعالى في سورة النمل ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] وفي سورة الزمر ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ- فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] [الزمر: ٦٨] فعُدل عن ﴿فَفَزِعَ﴾ إلى ﴿فَصَعِقَ﴾.

ووجه التناسب أن «فزع» أسهل في النطق من «صعق»، لأن الفاء والزاي لا تحتاجان إلى الجهد العضلي الذي تحتاج إليه الصاد والقاف، فضلاً عن أن هذين الأخيرين أنسب للتعبير بالمعنى الأقوى، فلما كان «فزع» أسهل وأرق عُبّر به في الآية الأولى ليشاكل معناها الذي هو أرق من معنى مشابهتها، قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٧-٩٠]

أما الآية المشابهة فكان المعنى فيها وفيما اكتنفها أقوى وأفخم من آية النمل السابقة، فاقتضت المشاكلة هنا العدول إلى التعبير بـ «صعق» لقوته الصوتية، قال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ

(١) انظر: البرهان: ٢٨٩، وكشف المعاني: ٢٨٣.

بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧ - ٧٠]

فمع أن الآيتين المتشابهتين في الإخبار عن البعث واضح أن آية الزمر أقوى في المعنى لسبقها بالإخبار عن عظيم قدرته عز وجل.

ويؤكد ما تقدم كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي - وهي فيما ثُقّل لونه - فيما اكتنف آية الزمر بالقياس إلى ما اكتنف آية النمل.

وجدير بالذكر أن ضياء الدين بن الأثير مثل بآيات الزمر - مع آيات أخرى أعقبت ما ذكرناه - لوضع الألفاظ الجزلة موضعها الذي تحسن فيه، من غير تعليق على ذلك، ومن غير تعرض لآية النمل[1].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وفي سورة فصلت ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [2] [فصلت: ١٢] فعُدل عن ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ إلى ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾.

والوجه أن «سوّى» أسهل في النطق من «قضى» لأن السين والواو لا يحتاجان إلى ما يحتاج إليه القاف والضاد من جهد عضلي، فضلاً عن أن هذين الأخيرين أنسب للتعبير بالمعنى الأقوى، فلما كان «سوّى» أسهل كان التعبير به في آية البقرة أنسب، لأن المعنى فيها أرق مما في آية فصلت، قال تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨ - ٢٩].

أما آية فصلت فالمعنى فيما اكتنفها أقوى، فاقتضت مشاكلته العدول عن التشابه إلى التعبير باللفظ الأقوى صوتياً، فقيل ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾، قال تعالى:

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾

(١) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ١٨٦.
(٢) انظر: ابن الجوزي، فنون الأفنان: ٤٢٠.

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ٩ - ١٣]

فمع أن المتشابهين واردان في سياق الإنكار والتوبيخ على الكفر فإن ما في فصلت أقوى في ذلك، ثم إن فيما سبق آية فصلت من أمر السماء والأرض وانقيادهما فخامة وقوة ليس لها نظير في البقرة.

ويتأكد ما سبق بكثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في آية فصلت وما اكتنفها، وبقلتها في البقرة، ويزداد هذا وكادة بكثرة السينات الواقعة في آية البقرة، بل في جملة واحدة منها؛ وهي ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ﴾، فهذا مناسب لرقة معناها. ولما قوي المعنى في آية فصلت تباعدت السينات، قال تعالى ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] فكان الأنسب لقوة المعنى هنا العدول إلى ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في أولى آيتين من سورة النساء ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧] وفي الثانية ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨] فعُدل عن ﴿سَبِيلًا﴾ إلى ﴿طَرِيقًا﴾.

ووجه ذلك أن ﴿سَبِيلًا﴾ ليس في حروفها ما يناسب المعنى القوي، بخلاف ﴿طَرِيقًا﴾ ففيها من ذلك الطاء والقاف، ولهذا كان التعبير بـ ﴿سَبِيلًا﴾ في الآية الأولى أنسب من حيث كان معناها أرق من معنى الثانية، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٧ - ١٣٨]

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢٢٢، والعقد الجميل: ٥٤.

ولما كان معنى الآية الثانية أقوى ناسب العدول فيها إلى ما فيه قوة صوتية ليشاكل قوة معناها، فقيل فيها ﴿طَرِيقًا﴾، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٧ - ١٦٩]

فلا يخفى أن المعنى في هذه الآية الثانية أقوى مما في الأولى، ولا سيما أنه ذكر فيها الجزاء مقروناً بالخلود المؤبد في جهنم، وهو أغلظ مما ذكر في الأولى.

ويؤكد ما تقدم عدم وقوع صوت مما يناسب المعنى القوي في الآية الأولى، بخلاف الثانية فقد وقع فيها مراراً وقوعاً يشعر بمشاكلة الصوت القوي للمعنى القوي.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحجر ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨] وفي سورة الصافات ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [1] [الصافات: ١٠] فالعدول عن ﴿مُّبِينٌ﴾ إلى ﴿ثَاقِبٌ﴾.

وليس في كلمة ﴿مُّبِينٌ﴾ حرف يحتاج إلى جهد عضلي زائد، بل هي - كما في الضوابط التي مهدنا بها لهذا التمثيل - من أسهل الكلمات في النطق، أما ﴿ثَاقِبٌ﴾ ففيها القاف التي تناسب المعنى القوي، وفيها الثاء التي تحتاج إلى بعض المجهود العضلي لرخاوتها؛ ويدل على ذلك أنها «شقت على ألسنتنا فتطورت في لهجات الكلام إلى تاء» [2] وذلك «لأن لهجات الكلام في تطورها تتخذ عادة أيسر الطرق وما يحمّلها أقل مجهود عضلي» [3] والمهم أن ﴿مُّبِينٌ﴾ أنسب للمعنى الرقيق، و﴿ثَاقِبٌ﴾ أنسب للمعنى القوي، وقد جاءت ﴿مُّبِينٌ﴾ في موضعها المناسب، لأن المعنى في آية الحجر رقيق بالقياس إلى ما في الصافات، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]

---

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٢٠٣.
(٢) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٣٣.
(٣) السابق: ٣٢.

وكان المعنى في آية الصافات أقوى، فعُدل فيها إلى التعبير بـ ﴿ثاقب﴾ لتشاكل قوته الصوتية القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنيَا بِزِينَةٍ ٱلكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفظًا مِّن كُلِّ شَيطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلمَلَإِ ٱلأَعلَىٰ وَيُقذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُم عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَن خَطِفَ ٱلخَطفَةَ فَأَتبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠]

ففي هذه الآية قذف من كل جانب وعذاب واصب، وخطف، وهو أبلغ من استراق السمع الذي في مشابهتها.

وتتبين صحة ما قدمنا بالنظر إلى كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في الصافات، وقلتها في الحجر، بل يكفي النظر في الآيتين لتَبيُّن تلك الصحة، إذ ليس في آية الحجر إلا القاف في ﴿ٱستَرَقَ﴾، على حين جاء في آية الصافات خمسة أصوات؛ أربع منها خاء وطاء في ﴿خَطِفَ ٱلخَطفَةَ﴾، والخامس قاف ﴿ثَاقِبٌ﴾، فتشاكلت قوة الصوت مع قوة المعنى في هذه الآية، ولو لم يُعدل إلى ﴿ثَاقِبٌ﴾ هنا فقيل ﴿مُّبِينٌ﴾ لخفت القوة الصوتية، ولما كان ذلك مناسباً.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة طه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرضَ مَهدًا وَسَلَكَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣] وفي سورة الزخرف ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرضَ مَهدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزخرف: ١٠] وقد تقدم هذا المثال في تناسب الموافقة اللفظية، وثمة مناسبة صوتية للمعنى في العدول عن ﴿وَسَلَكَ﴾ إلى ﴿جَعَلَ﴾.

ووجه هذه المناسبة الصوتية للمعنوية أن ﴿وَسَلَكَ﴾ أسهل في النطق من ﴿جَعَلَ﴾، لأنه ليس في الأولى مما يحتاج إلى جهد عضلي زائد إلا الكاف، أما الثانية ففيها الجيم والعين، وأولهما يناسب المعنى القوي، وثانيهما حرف حلقي هو أقوى من أحرف ﴿وَسَلَكَ﴾، وبالجملة ﴿وَسَلَكَ﴾ أسهل من ﴿جَعَلَ﴾، والمناسب لذلك أن يعبر بالأسهل عن المعنى الرقيق، وبالأقوى عن المعنى الأقوى، وكذلك هو في المتشابهين، فالمعنى في آية طه أرق مما في الزخرف، لأنها كما ذكر أبو جعفر بن الزبير مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله، إذ

جاءت في سياق أمره تعالى لموسى وهارون عليهما السلام أن يدعوا فرعون بالقول اللين - وهو ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [1] [طه: ٤٤] - قال تعالى حكاية عنهما وعن فرعون:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٤٨ - ٥٣]

فهذا خطاب لين ومعنىً رقيق يناسبه التعبير بـ ﴿وَسَلَكَ﴾.

والمعنى في آية الزخرف أقوى والخطاب فيها أشد، وهي كما نبه أبو جعفر بن الزبير مبنية على توبيخ كفار العرب وتقريعهم [2]، فاستدعى هذا العدول إلى ﴿جَعَلَ﴾ ليشاكل بقوته الصوتية قوة المعنى في الآية وما اكتنفها، قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ الآيات [الزخرف: ٣-١١].

ومع أن تلك المشاكلة محسوسة، وهي أوضح من أن يُعلق عليها، فلا يضير التنبيه على أن أكثر الأصوات المناسبة للمعنى القوي في الزخرف وقعت في آية العدول وفي الآيتين اللتين اكتنفتاها، ولم تكن بهذه الصفة من التقارب المشعر بقوة المعنى في آية طه، مما يؤكد الوجه الذي بيناه.

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٨٤.

(٢) انظر: السابق: ٢: ٦٨٥.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨] وفي سورة الأعراف ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] [الأعراف: ٣٥] فعُدل عن ﴿ءَامَنَ﴾ إلى ﴿ٱتَّقَىٰ﴾.

والتعبير بـ ﴿ٱتَّقَىٰ﴾ أنسب للمعنى القوي من التعبير بـ ﴿ءَامَنَ﴾ بسبب القاف التي هي أحد الحروف المناسبة للمعاني القوية، وليس في ﴿ءَامَنَ﴾ حرف من تلك الحروف مما يجعلها أنسب للمعنى الأرق، وهذا ما روعي في الآيتين المتشابهتين؛ فعُبر بـ ﴿ءَامَنَ﴾ في آية الأنعام لمشاكلة رقة المعنى فيها، قال تعالى:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨ - ٤٩]

ولما كان المعنى في آية الأعراف أقوى روعيت مشاكلة الصوت له بالعدول إلى ﴿ٱتَّقَىٰ﴾، قال تعالى:

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦]

فالمذكور في الأعراف تكذيب واستكبار وجزاؤه الخلود في النار، أما في الأنعام فتكذيب فقط، ومس عذاب دون خلود فيه، فالمعنى في الأعراف إذن أبلغ وأقوى، فناسب أن يُعدل فيها إلى ﴿ٱتَّقَىٰ﴾ ليتشاكل الصوت والمعنى في القوة كما كانا متشاكلين في الرقة في آية الأنعام.

ويؤكد ما قلناه كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في آية الأعراف وقلتها في الأنعام، مع ما في الأعراف من أصوات أخرى تحتاج إلى جهد عضلي زائد ليست في الأنعام.

---

(١) انظر: العقد الجميل: ١٠.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩١] وفي إحدى آيتين من سورة النساء ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء:٨٩] وفي الثانية ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [1] [النساء:٩١] فالعدول بالجملة عن ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ إلى ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾

وبين «ثقف» و «وجد» تقارب في القوة الصوتية؛ لتضمن كل منهما حرفاً مناسباً للمعاني القوية؛ القاف في الأول والجيم في الثاني. بيد أنهما يختلفان في أن الأول فيه الثاء والفاء؛ وكلاهما حرف مهموس، والثاني فيه الواو والدال؛ وكلاهما مجهور[2]، والأحرف المهموسة مجهدة للتنفس بخلاف المجهورة كما تقدم في الضوابط التي مهدنا بها للتمثيل، وبهذا كان ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أقوى في النطق من ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وزاد قوته كثرة حروفه مع تعدد ما فيه من الأحرف المهموسة؛ التي هي الثاء والقاف والفاء والتاء والهاء[3]، مما يجعل اللفظ مجهداً للنطق كما تقدم في الضوابط الممهدة؛ بخلاف ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ فليس فيه من المهموس إلا التاء والهاء. والحاصل من ذلك أن التعبير بـ ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أنسب للمعنى القوي، وبـ ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أنسب للمعنى الرقيق، وهذا ما روعي في تلك المتشابهات؛ لأن المعنى في آيتي البقرة والنساء الثانية أقوى مما في آية النساء الأولى، فجاء التعبير في تينك بـ ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ الأقوى صوتياً والأكثر إجهاداً ليناسب تلك القوة المعنوية، قال تعالى في آية البقرة:

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقال في آية النساء الثانية:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ۖ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١]

---

(١) انظر: السابق: ٢٧.

(٢) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٢١.

(٣) انظر: السابق: ٢١.

ولم يكن المعنى في آية النساء الأولى بهذه الصفة، وإنما كان أرق، فناسب أن يُعدل فيها إلى ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ لتشاكل سهولته الصوتية رقة المعنى، قال تعالى:

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩]

فآيتا البقرة والنساء الأولى أقوى في المعنى من مشابهتهما الأخيرة هذه؛ لأن آية البقرة في قتال المشركين للمسلمين، وآية النساء الثانية في قتال المنافقين للمسلمين، وفي كلتيهما جرى ذكر للفتنة؛ أي فتنة المؤمن عن دينه في البقرة، وفتنة وقوع المنافقين في الكفر وارتدادهم إليه وتأييدهم للكفار في محاربة المسلمين في آية النساء[1].

أما آية النساء الأولى المشابهة فليس فيها محاربة، ولم يجر فيها ذكر للفتنة، وإنما اقتصر أمر المنافقين هنا على تمنيهم كفرَ المسلمين، وفيها تلطف بهؤلاء المنافقين حتى يهاجروا. وبهذا يتضح أن الآيتين الأوليين أقوى في المعنى من الثالثة، وأن التعبير فيهما بـ ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ذي القوة الصوتية مشاكل للقوة المعنوية، وأن العدول عن ذلك إلى التعبير بـ ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في آية النساء الأولى لمشاكلة الرقة المعنوية فيها؛ لما في هذا اللفظ من سهولة صوتية بالقياس إلى ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

ويؤيد ما نبهنا عليه وجهان؛ الأول كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في آيتي البقرة والنساء الثانية وقلتها في آية النساء الأولى. والثاني كثرة الأصوات التي تحتاج إلى جهد عضلي زائد في آيتي البقرة والنساء الثانية وقلتها في آية النساء الأولى، ولا شك في أن الأصوات التي تحتاج إلى ذلك الجهد أنسب للمعاني القوية، وسنشير هنا إلى ما في كل آية من آيات المتشابهات الثلاث من تلك الأصوات لنبين المفارقة ونؤكد المشاكلة، وذلك بإثبات الكلمات التي فيها أحرف تحتاج إلى ذلك الجهد، وبإتباعها برقم يشير إلى عددها في الكلمة، أما تحديد تلك الحروف فتقدم في الضوابط التي افتتحنا بها هذا اللون من التناسب.

---

(١) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٦٥ و ١٨١، والزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز؛ ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٣٠ و ٩٣.

في آية البقرة: اقتلوهم [٢]، حيث [١]، ثقفتموهم [٢]، أخرجوهم [٤]، حيث [١]، أخرجوكم [٤]، أشد [٢]، القتل [١]، تقاتلوهم [٢]، عند [١]، المسجد [١]، الحرام [١]، حتى [١]، يقاتلوكم [٢]، منه [١]، فإن [١]، قاتلوكم [٢]، فاقتلوهم [٢]، كذلك [٢]، جزاء [٣ مع عد الزاي]، الكافرين [١] = ٣٧.

في آية النساء الثانية: ستجدون [١]، آخرين [٢]، أن [١]، يأمنوكم [٢]، يأمنوا [١]، قومهم [٢]، كل [١]، إلى [١]، أركسوا [٢]، فيها [١]، فإن [١]، يعتزلوكم [٣]، يلقوا [١]، إليكم [٢]، يكفوا [١]، أيديهم [٢]، فخذوهم [٢]، اقتلوهم [٢]، حيث [١]، ثقفتموهم [٢]، أولئكم [٣]، جعلنا [٢]، لكم [١]، عليهم [٢]، سلطاناً [١] = ٤٠.

في آية النساء الأولى: تكفرون [١]، كما [١]، كفروا [١]، فتكونون [١]، سواء [١]، تتخذوا [١]، منهم [١]، أولياء [٢]، حتى [١]، يهاجروا [٢]، الله [١]، فإن [١]، فخذوهم [٢]،اقتلوهم [٢]، حيث [١]، وجدتموهم [٢]، تتخذوا [١]، منهم [١]، نصيراً [١] = ٢٤.

ففي آية البقرة سبعة وثلاثون حرفاً من الأحرف المجهدة عضلياً، وفي آية النساء الثانية أربعون، وفي الأولى أربعة وعشرون. ففي الأوليين كثرة واضحة تناسب قوة المعنى فيهما، مع ما يؤكد ذلك من التقارب بينهما في عدد تلك الحروف، وفي آية النساء قلة واضحة تناسب رقة المعنى فيها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾ [الأعراف: ٩٤] وفي سورة سبأ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾[١] [سبأ: ٣٤] فعُدل عن ﴿نَّبِيٍّ﴾ إلى ﴿نَذِيرٍ﴾.

والنطق بـ ﴿نَّبِيٍّ﴾ يحتاج إلى جهد عضلي أكثر مما يحتاج إليه النطق بـ ﴿نَذِيرٍ﴾، بسبب إدغام الياء، لأن الإدغام «حبس الصوت في الحيّز بعنف»[٢] فهو يحتاج إلى جهد عضلي زائد[٣]، وينضاف إلى ذلك ما لإدغام الياء من صعوبة في الوصل، فهو كما نُقل عن بعض

(١) انظر: العقد الجميل: ٨٢.
(٢) الضباع، علي محمد، الإضاءة في بيان أصول القراءة: ١٤٠.
(٣) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٢١١ - ٢١٢.

شُراح المقدمة الجزرية أصعب من إدغام سائر الحروف إلا الواو[1]، ففي النطق بـ ﴿نَّبِيٍّ﴾ إذن جهد ليس له نظير في ﴿نَذِيرٌ﴾؛ بل المد هنا يجعل هذا اللفظ أسهل، وإن كان فيه الذال المهموسة لأنها ضعيفة بالنسبة إلى الإدغام، وبهذه السهولة يكون أنسب للمعنى الرقيق، ويكون ﴿نَّبِيٍّ﴾ أنسب للمعنى القوي، وهذا ما روعي في الآيتين المتشابهتين؛ إذ المعنى في آية الأعراف أقوى، فجاء التعبير فيها بـ ﴿نَّبِيٍّ﴾ الأقوى صوتياً مشاكلاً لتلك القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]

والمعنى في آية سبأ أرق، فاقتضت مشاكلته الصوتية العدول إلى التعبير بالأسهل صوتياً، فقيل ﴿نَذِيرٌ﴾، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤ - ٣٥]

ففي آية الأعراف أخذ وشدة وقوة صوتية مشاكلة لذلك. وليست آية سبأ بهذه الصفة؛ ولذلك قلت فيها الأصوات المناسبة للمعنى القوي بما فيها المدغمات.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف حكاية عن صالح - عليه السلام -

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ [الأعراف: ٧١] وفي سورة يوسف حكاية عن يوسف - عليه السلام - ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: ٤٠] وفي سورة النجم في خطاب مشركي العرب ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾[2] [النجم: ٢٣] فعُدل عن التعبير بـ ﴿نَزَّلَ﴾ إلى التعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾.

---

(١) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد في علم التجويد: ٩٣.

(٢) تقدم في العدول بمبدلات الصيغة البنائية.

والهمزة والزاي من الحروف التي تحتاج إلى جهد عضلي زائد، والإدغام كذلك كما تقدم في المثال السابق، فاجتمع في ﴿نَـزَّلَ﴾ جهد الزاي وجهد الإدغام الذي يفوق جهد الهمزة، مما جعل النطق بهذا اللفظ أقوى صوتياً من النطق بـ ﴿أُنزِلَ﴾، وبهذا يكون ﴿نَـزَّلَ﴾ أنسب للمعنى الأقوى، و﴿أُنزِلَ﴾ أنسب للمعنى الرقيق، وقد روعي هذا في المتشابهات الثلاث؛ لأن المعنى في آية الأعراف واضح القوة شديد الوقع لما فيه من التوعد الذي توعده صالح - عليه السلام - قومه، قال تعالى حكاية عنه:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]

فجاء التعبير هنا بـ ﴿نَـزَّلَ﴾ الأقوى صوتياً مشاكلاً لهذه القوة المعنوية الواضحة.

وليس في آيتي يوسف والنجم قوة معنىً كالتي في مشابهتهما السابقة، وإنما فيهما رقة تقتضي مشاكلتها الصوتية العدول إلى التعبير بالأرق صوتياً ﴿أُنزِلَ﴾، أما آية يوسف فخاطب بها يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن داعياً إياهما إلى عبادة الله ونبذ ما عداه من عبادة الأصنام بخطاب لين رقيق، قال تعالى حكاية عنه:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]

وأما آية النجم فخوطب بها مشركو العرب بخطاب رقيق لين - وإن كان أقوى مما في آية يوسف - ودُعوا بها إلى نبذ عبادة الأصنام واتباع الهدى الذي جاءهم من الله، قال تعالى:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]

ويؤيد ما تقدم كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في آية الأعراف كثرة محسوسة يدرك بها تالي الآية تشاكل القوة المعنوية والصوتية، على حين قلت تلك الأصوات في آيتي يوسف والنجم قلة واضحة ليتشاكل المعنى والصوت فيهما، ولو عُبر هنا بـ ﴿نَـزَّلَ﴾ لما تحقق التشاكل، أي أنه لولا العدول لاختل التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المدثر ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٥] وفي سورة عبس ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١١ - ١٢] فعُدل عن التعبير بضمير التذكير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى التعبير بضمير التأنيث في ﴿إِنَّهَا﴾. وقد تقدم هذا المثال قريباً في مشاكلة الصوت للصوت، وهذا موضع شرح ما راعاه العدول فيه من مشاكلة الصوت للمعنى.

وينبني وجه المشاكلة هنا على الفرق في الجهد العضلي الذي يحتاج إليه النطق بالضم والفتح، فالضمة أثقل من الفتحة[1]، لأن النطق بها يحتاج إلى استدارة الشفتين، على حين تبقيان منفرجتين في النطق بالفتحة[2]، مما يحوج إلى جهد عضلي زائد للنطق بالضمة، ويجعلها من ثم أنسب للمعنى القوي، وتبقى الفتحة أنسب للمعنى الرقيق، وقد روعي هذا في العدول عن التشابه هنا؛ وذلك أن المعنى فيما اكتنف آية المدثر أقوى، لأن مداره على توبيخ المشركين على إعراضهم عن القرآن وزجرهم عما اقترحوه تعنتاً من أن يُعطى كل منهم كتاباً خاصاً به من الله يثبت أن محمداً - ﷺ- رسوله [3]، فجاء التعبير هنا بـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ الأقوى صوتياً لضمة الهاء ليشاكل تلك القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ٥١ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ٥٢ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥٦]

أما آية عبس وما اكتنفها فدار المعنى فيها على عتاب رسول الله - ﷺ- لانشغاله بدعوة بعض كبراء قريش إلى الإسلام وإعراضه عن الأعمى الذي جاءه يطلب العلم[4]، وليس عتاب رسول الله - ﷺ- كتوبيخ الكفار في القوة، ولا شك في أن العتاب أرق وألين، فروعي هذا بالعدول إلى ﴿إِنَّهَا﴾ الأرق صوتياً لفتحة الهاء ليشاكل تلك الرقة المعنوية، قال تعالى:

---

(١) انظر: سيبويه، الكتاب: ٤: ١٦٧.
(٢) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٣٥.
(٣) انظر: الزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز؛ ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٥٧٨.
(٤) انظر: السابق: ٢: ٨٣٤ - ٨٣٥.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١-١٦]

ومع أن تلك المشاكلة مدركة واضحة، فإنها تزداد وكادة بملاحظة كثرة أصوات الضم والواو في المدثر - وهما أقوى من الفتحة والألف - وقلتها في عبس مع كثرة الفتحة والألف هنا كما تقدم بيانه في التمثيل بهذا المثال في مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للصوت.

ومن أمثلة العدول بالمبدلات الحرفية لرعاية هذه المشاكلة قوله تعالى في سورة الرعد ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢] وفي سورة لقمان ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] وفي سورتي فاطر والزمر كما في الرعد ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [1] [فاطر: ١٣، والزمر: ٥] فعُدل عن التعبير باللام إلى التعبير بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ ثم إلى التعبير باللام، وبالجملة هو عدول عن اللام إلى ﴿إِلَىٰٓ﴾.

والفارق الصوتي الأبرز هنا هو مد الصوت في آية لقمان وقصره في مشابهاتها، لأن تلاقي حرفي المد والهمزة بوقوع المد في آخر الكلمة والهمزة في أول الكلمة التالية يجيز مد الصوت بمقدار خمس حركات، أو أربع أو اثنتين؛ على خلاف في ذلك، وبعضهم يجيز القصر، والأكثرون على المد[2]. فلما التقى المد والهمزة قبل ﴿إِلَىٰٓ﴾ وبعده في آية لقمان ﴿يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ كان ثمة مدان جائزان؛ مد الياء قبل ﴿إِلَىٰٓ﴾، ومد الألف من ﴿إِلَىٰٓ﴾. أما اللام في الآيات المشابهة ﴿لِأَجَلٍ﴾ فليس فيها مد.

ومدار المعنى في آيات الرعد وفاطر والزمر على الإخبار عن ابتداء الخلق كما نبه الخطيب الإسكافي[3] وكما شرحنا ذلك في تمثيلنا بهذا المثال في مراعاة العدول للتناسب المعنوي، قال تعالى في آية الرعد:

---

(١) تقدم في العدول بالمبدلات الحرفية الجارة.

(٢) انظر: دعاس، عزت، الواضح في شرح المقدمة الجزرية: ٧٢ - ٧٣، وانظر: تفصيل ذلك في النشر لابن الجزري: ١: ٣١٩ وما بعدها.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٧٥.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]

وقال في فاطر:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: ١١] إلى قوله:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]

وقال في آية الزمر:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴾ [الزمر: ٥]

وليس في ذلك الإخبار ما يناسب المد، بل القصر أنسب له؛ لأنه إخبار عما حدث في الماضي، ولهذا عُبر هنا باللام، فقيل ﴿لِأَجَلٍ﴾.

أما آية لقمان فمدار معناها على التنبيه على البعث، ووقعت في سياق الإخبار عنه كما نبه الخطيب الإسكافي [1] وكما شرحنا في تمثيلنا بهذا المثال في مراعاة العدول للتناسب المعنوي، قال تعالى:

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨ - ٢٩]

ثم قال بعد آيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ الآية [لقمان: ٣٣]

---

(١) انظر: السابق: ٣٧٤ - ٣٧٥.

فلما اكتنف الآية ما ينبه على البعث أفهم الإخبار فيها بجريان الشمس والقمر امتداده إلى يوم البعث، لا مجرد الإخبار عما حدث في الماضي، فناسب هذا الامتداد العدول إلى التعبير بـ ﴿إِلَىٰ﴾ ليتيح مد الصوت في موضعين من ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ﴾، ويكون هذا المد الصوتي مشاكلاً للامتداد المعنوي.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ الآية [الأنفال: ١٣] وفي سورة الحشر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [(١)] الآية [الحشر: ٤] فعُدل عن الفك إلى الإدغام ﴿يُشَآقِّ﴾ في الحشر.

والنطق بالمفكوك ﴿يُشَاقِقِ﴾ يحتاج إلى جهد عضلي أكثر مما يحتاج إليه النطق بالمدغم، لأن «اجتماع المثلين عندهم مكروه، لأنهم يستثقلون أن يُميلوا ألسنتهم عن موضع، ثم يعيدوها إليه، لما في ذلك من الكلفة على اللسان، وقد شبه الخليل ذلك بمشي المقيد، لأنه يرفع رجله ويضعها في موضعها، أو قريب منه، لأن القيد يمنعه عن الانبعاث، وامتداد الخطوة» [(٢)] أما حال الإدغام «فيرتفع اللسان بهما دفعة واحدة شديدة، فيكون ذلك أخف عليهم من ارتفاع اللسان بهما دفعتين» [(٣)] والحاصل أن ﴿يُشَاقِقِ﴾ أقوى صوتياً من ﴿يُشَآقِّ﴾، مما يجعل الأول أنسب للمعنى القوي، والثاني أنسب للمعنى الرقيق. وقد روعي هذا بالعدول عن التشابه؛ إذ كان المعنى في آية الأنفال أقوى، ووقع التعبير فيها بالأقوى ﴿يُشَاقِقِ﴾، قال تعالى:

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢ - ١٤]

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٧٤، و البرهان: ١٥٦ - ١٥٧، وملاك التأويل: ١: ٢١٤، والعقد الجميل: ٥٢.

(٢) ابن يعيش، شرح الملوكي في التصريف: ٤٥١ - ٤٥٢.

(٣) السابق: ٤٥٢.

وكان المعنى في آية الحشر ألين وأرق، فاقتضت مشاكلته الصوتية العدول إلى الأرق صوتياً، فقيل فيها ﴿يُشَآقِّ﴾، قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٢ - ٤]

فمع أن الآيتين وقعتا في سياق قوة معنوية، فإن ما في الأنفال أقوى؛ لذكر الحرب والقتال، أما آية الحشر فذكر فيما تقدمها ظفر المؤمنين وإجلاء الكافرين بلا حرب ولا قتال.

ومع أن الأصوات المناسبة للمعنى القوي كانت في الحشر أكثر، فإن أكثرها متباعد عن آية العدول، بخلاف آية الأنفال فكلها متقارب من الكلمة المعدول عنها، ويزيد على ذلك أن الآيات التي ذكرناها من سورة الحشر أطول مما ذكرناه من سورة الأنفال، فكان طبيعياً أن تزيد تلك الأصوات في الحشر. على أن المشاكلة بين قوة الصوت والمعنى في الأنفال لا تخفى على من أعطى المقام حقه من الأداء السليم، فإنها تكاد تُشعر بجلبة الحرب وقعقعة السلاح، وليست كذلك المشاكلة بين رقة الصوت والمعنى في الحشر.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في أولى آيتين من سورة الكهف ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] وفي الثانية ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [1] [الكهف: ٨٢] فعُدل عن الفعل التام ﴿تَسْتَطِع﴾ إلى منقوص التاء ﴿تَسْطِع﴾.

والنطق بالفعل التام يحتاج إلى جهد عضلي أكثر مما يحتاج إليه منقوص التاء؛ لصعوبة النطق بالتاء والطاء متواليين؛ لاتحاد مخرجهما وتقاربهما في الصفات [2]، مما يجعل التعبير بـ ﴿تَسْتَطِع﴾ أنسب للمعنى القوي، وبـ ﴿تَسْطِع﴾ أنسب للمعنى الرقيق. وقد روعي هذا في المتشابهين؛ إذ كان المعنى في الآية الأولى أقوى مما في الثانية؛ ففي الأولى أُخبر عن

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٤٣، والعقد الجميل: ١١٧.
(٢) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٤٨ و ٦١.

الخضر عزمه على مفارقة موسى - عليهما السلام - وكان ذلك منه بعد أن وعده موسى ألا يسأله عن شيء حتى يبتدئه الخضر بالبيان، ولكن موسى كما تذكر الآيات لم يصبر على عدم السؤال، فعزم الخضر على مفارقته كما أخبر تعالى:

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]

أما الآية الثانية فكان المعنى فيها أرق، لأنها دارت على تفسير ما فعله الخضر مما لم يصبر عليه موسى، قال تعالى حكاية عن الخضر:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]

فليس في هذه الآية ما في مشابهتها من انفعال الخضر، بل فيها رقة تقتضي التعبير بـ ﴿تَسْطِع﴾ الأرق صوتياً، ولهذا عُدل إليه.

ويؤكد ما ذكرناه القوة الصوتية في الآية الأولى، ولا سيما في كلمة ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾؛ لتضمنها همزتين مع الكاف - وثلاثتها مما يحتاج إلى جهد عضلي زائد - فضلاً عن كثرة حروفها، فجاء ﴿تَسْتَطِع﴾ مناسباً بقوته الصوتية لذلك. أما الآية الثانية فلم يقع فيها قريباً من كلمة العدول قوة صوتية كسابقتها، فليس قوله ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ﴾ كقوله ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ﴾ فهاهنا خفة مناسبة لخفة ﴿تَسْطِع﴾ ورقته، تعضد ما قدمناه من مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للمعنى.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص:

ومن أمثلة ما يراعيه العدول بالزوائد والنواقص من مشاكلة الصوت للمعنى قوله تعالى في سورة الشورى ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشورى: ٣٧] وفي سورة النجم ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ﴾ [١] [النجم: ٣٢] فعُدل عن نقص ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ﴾ إلى زيادته.

وكلمة ﴿ٱللَّمَمَ ۚ﴾ من أسهل الكلمات نطقاً وفقاً للضوابط الصوتية التي مهدنا بها، فليس في الزيادة مما يحتاج إلى جهد عضلي إلا همزة ﴿إِلَّآ﴾، مما يجعل الزيادة على عمومها

(١) انظر: العقد الجميل: ١٣٧.

سهلة في النطق، ويجعلها من ثم أنسب للمعنى الرقيق، وهذا ما روعي بالعدول عن التشابه؛ لأن المعنى في الشورى أفخم وأقوى، فلم تكن تلك الزيادة مناسبة له، قال تعالى:

﴿... وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٩]

أما آية النجم فالمعنى فيها دون ما سبق في الفخامة، ولذلك عُدل إلى زيادة ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ لتشاكل برقة أصواتها وسهولتها رقة المعنى، قال تعالى:

﴿.... وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣١ - ٣٢]

فما في الشورى أقوى معنىً؛ لأن الموصوفين فيها أفضل حالاً من الموصوفين في النجم.

ويؤكد المشاكلة الصوتية للمعنى في كليهما كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في الشورى وقلتها في النجم.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ الآية [الأنبياء: ٢٥] وفي سورة الحج ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ﴾ الآية [الحج: ٥٢] فعُدل عن نقص ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى زيادته في الحج. وقد حللنا هذا المثال قريباً في مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للصوت، وهذا موضع تحليل ما راعاه من مشاكلة الصوت للمعنى.

وتقدم في مثال سابق من هذه الفقرة أن النطق بـ ﴿نَبِيٍّ﴾ يحتاج إلى جهد عضلي زائد بسبب ما فيه من إدغام، مما يجعل زيادته أنسب للمعنى القوي، ونقصه أنسب للمعنى الرقيق، وهذا ما روعي بالعدول عن التشابه؛ لأن آية الأنبياء فيها رقة معنوية؛ فجاء نقص اللفظ منها مشاكلاً صوتياً لتلك الرقة، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

أما آية الحج ففيها قوة معنوية تستدعي زيادة ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ ليكون بقوته الصوتية مشاكلاً لتلك القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]

فآية الأنبياء ليس فيها سوى الإخبار بالإيحاء، وليس هذا في قوة معنى آية الحج؛ لما فيها من الإخبار عن كيد الشيطان بالوساوس ورد الله سبحانه لكيده.

ويؤكد ما سبق كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي بما فيها الإدغام في آية الحج وقلتها في آية الأنبياء، فتشاكل الصوت والمعنى في كلا المتشابهين.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ - ١٦٢] وفي سورة آل عمران ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٧ - ٨٨] فعُدل عن نقص ﴿جَزَآؤُهُمْ أَنَّ﴾ إلى زيادته في آل عمران. وقد تقدم هذا المثال في مراعاة العدول لتناسب الموافقة اللفظية، وهذا موضع التنبيه على ما راعاه من مشاكلة الصوت للمعنى.

وتتميز هذه الزيادة بجهد عضلي زائد؛ لأن أكثر الأحرف التي فيها تحتاج إلى ذلك؛ وهي الجيم والزاي والهمزة والهاء وهمزة «أن» وإدغام النون، إضافة إلى كثرة أحرف ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾، مما يجعل هذه الزيادة أنسب للمعنى القوي، ويجعل النقص أنسب للمعنى الرقيق، وقد روعي هذا بالعدول عن التشابه، فجاء كل من المتشابهين مشاكلاً صوتياً لمعناه؛ أما آية البقرة فالمعنى فيها أرق من معنى مشابهتها فناسبها النقص، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ - ١٦٢]

وأما آية آل عمران المشابهة فالمعنى فيها أفخم وأقوى، فاستدعت مناسبته العدول فيها إلى زيادة ﴿جَزَآؤُهُمْ أَنَّ﴾ لتشاكل هذه القوة الصوتية تلك القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ الآية [آل عمران: ٨٦ - ٨٩]

فكُفْر الموصوفين في آل عمران أعظم وأشنع من الموصوفين في البقرة، وبهذا كان المعنى في آية آل عمران أبلغ وأقوى.

ويؤيد ذلك الوجه كثرة الأصوات المناسبة للقوة المعنوية في آل عمران وقلتها في البقرة.

ب - العدول عن التشابه لتجنب ثقل المجاورة الصوتية :

وهي الصورة الثانية من صور التناسب الصوتي التي يُعدل عن التشابه لأجلها، وقد تناولها القدماء فيما سماه بعضهم بتنافر الحروف وآخر بالمعاظلة اللفظية[1]. ومرجع هذا التنافر عندهم إلى تكرار الحروف أو تقاربها في المخرج أو الصفة، ورأى بعضهم أن تكرارها لا يوجب التنافر مطلقاً، فقال رداً على من أطلق: «ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقاً كما يقتضيه كلامه، بل بحسب التركيب، فقد تتكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفتها على اللسان وسهولة النطق بها، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨] كيف اجتمع فيه ست عشرة ميماً في آية واحدة، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع وميمان في موضع، مع ما اشتملت عليه من الطلاوة والرونق الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله»[2].

فليس إذن ثمة منافاة بين صورتي التناسب اللتين يراعيهما العدول؛ صورةِ تجنب ثقل المجاورة الصوتية الذي غالباً ما يسببه تكرر الأصوات، وصورةِ مشاكلة الصوت للصوت التي تقوم على تكرر الأصوات أيضاً، وإنما لكل تركيب ما يناسبه.

---

(١) انظر على سبيل المثال: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ٣٠٩، وشروح التلخيص: ٩٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى: ٢: ٢٧٣. وهو بذلك يرد على ما قاله ابن الأثير في المثل السائر: ١: ٣٠٩ حتى ٣١١.

على أن تحكيم التركيب في تنافر الأصوات أو ثقلها كما سبق في كلام من نقلنا عنه آنفاً تحكيم عام لا بد له من ضوابط تخصصه ولو كانت تقريبية، وهذا ما دعا بعض المعاصرين إلى البحث عنها، فانتهى إلى أن سر الاستثقال والتنافر يرجع إلى سببين هما: «١- اشتمال البيت أو الشطر من البيت على حرف من الحروف التي تتطلب جهداً عضلياً مكرراً عدة مرات في كلمات مختلفة -٢- زيادة تكرر الحرف الهجائي [على] نسبة شيوعه في اللغة العربية»[١] ثم ذكر أن تلك الحروف التي تحتاج إلى ذلك الجهد حروف الحلق وأقصى اللسان ووسطه وحروف الإطباق، وقد نقلناها عنه سابقاً فيما مهدنا به لمشاكلة الصوت للمعنى، ثم قال: «فإذا تكرر حرف من هذه الحروف السابقة في بيت أو شطر منه استطعنا أن نحكم على ثقله في النطق، ثم نفور الأذن منه، ويتبع هذا رداءة الموسيقى اللفظية. وحد هذا التكرار أو عدد المرات التي يسمح بها في تكرار حرف من الحروف لا يمكن معرفته إلا بالرجوع إلى السبب الثاني؛ وهو نسبة شيوع هذا الحرف في اللغة»[٢]. ثم ذكر نسبة شيوع كل حرف استناداً إلى بحث إحصائي في نسبة شيوع الحروف في القرآن الكريم[٣]. ثم انتهى إلى القول: «فإذا تصورنا أن الشطر من البيت يشتمل عادة على ما يقرب من ٢٠ حرفاً استطعنا أن نصل إلى الضوابط الآتية[٤]:

[أ] يغلب أن يشتمل الشطر على ثلاثة أو أربعة من الأحرف الآتية: اللام والميم والنون.

[ب] وعلى مرتين أو ثلاث مرات من الأحرف التالية: الهمزة، الواو، الهاء، التاء، الياء، الباء، الكاف.

[جـ] وعلى مرة أو مرتين من الأحرف: الراء، والفاء، والعين، والقاف، والسين، والدال.

[د] وعلى مرة واحدة من الحروف: الذال، الجيم، الحاء.

---

(١) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٣٥، ووقع في الأصل عن ، وصوابه ما أثبتنا.
(٢) السابق، والصفحة نفسها.
(٣) انظر: السابق: ٣٦.
(٤) السابق، والصفحة نفسها.

[هـ] أما باقي الحروف فتلك هي النادرة الشيوع« [1] وختم هذه النتيجة بأن بين أن هذه الضوابط لا تعني التحديد الدقيق لعدد مرات التكرار، وإنما هي تقريبية؛ تساعد على التمييز بين التكرار القبيح والمقبول، وبين مراتب ثقل الحروف في النظم بالنظر إلى مخارجها وصفاتها[2].

كان لا بد من هذا التمهيد لحاجتنا إلى ضوابطه في التمثيل، ولضرورة إثبات عدم المنافاة بين ما يراعيه العدول من مشاكلة صوتية وتجنب لثقل التجاور الصوتي.

وثمة شيء آخر يجب استدراكه على ما تقدم والتنبيه عليه قبل الشروع في التطبيق؛ وهو أن الحكم بالثقل الصوتي لا يكون دقيقاً ما لم يُربط سببا الاستثقال: الجهد العضلي ونسبة الشيوع بالمعنى، لأن الثقل الصوتي المعتدل قد يكون مستحسناً مطلوباً للمعنى كما رأينا فيما يراعيه العدول من مشاكلة الصوت للمعنى، وكما ستؤكده أمثلة مراعاة العدول لتجنب ثقل المجاورة الصوتية.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لتجنب ذلك الثقل قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١] وفي سورة فاطر ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [3] [فاطر: ٤٥] فعُدل عن الإضمار في ﴿عَلَيْهَا﴾ إلى الإظهار في ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾.

ذكر الخطيب الإسكافي أن المراد بـ ﴿عَلَيْهَا﴾ الأرض، وهو من الإيجاز، كما تقول العرب: ما فوقها أصدق من فلان ولا تحتها أكذب من فلان، يريدون: فوق الأرض وتحت

(١) انظر: السابق: ٣٦ وما بعدها.
(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٦٥، والبرهان: ٢٤٤، وملاك التأويل: ٢: ٦٠٦، وكشف المعاني: ٢٢٨، والعقد الجميل: ١١١.
(٣) انظر: درة التنزيل: ٢٦٥ - ٢٦٦.

السماء، فساغ الإضمار لشهرة الاستعمال في هذا الاسم، ولكون المذكور مشاهد لكل متكلم يقدر على الإشارة إليه[1]. وذكر غيره نحوه[2].

ثم أبدى الخطيب الإسكافي وجه التناسب الذي روعي بتجنب الثقل الصوتي، فقال: «﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ والمراد: ظهر الأرض، ولم يذكر الظهر في الآية الأولى لتقدم الظاء في المبتدأ بعد ﴿لَوْ﴾، والظاء تعز في كلام العرب؛ ألا ترى أنها ليست لأمة من الأمم سوى العرب، فلما اختصت بلغتها وتُجنبت إلا فيها استعملت في الآية الأولى، واستعملت في الآية الثانية في جواب ما بعد ﴿لَوْ﴾ لهذا، ولم تجيء في هذه السورة إلا في سبعة أحرف تكررت؛ نحو: الظلم، والنظر، والظل، وظل وجهُه، و[الظعن]، والعظيم، والوعظ. وأُجريت مجرى ما استعمل من الحروف، فلم يُجمع بينهما في جملتين معقودتين عقد كلام واحد وهما ما بعد ﴿لَوْ﴾ وجوابها. وحُسن التأليف وقصد الحروف مراعىً في الفصاحة لا يخفى على أهل البلاغة»[3] ونقل الكرماني ذلك عنه ملخصاً، وتابعه ابن جماعة[4].

فالوجه كما نبه الخطيب الإسكافي أن الإضمار في آية النحل استدعاه ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾، لكيلا يقع ثقل صوتي بتقارب الظاءين، لأن الظاء حرف ثقيل قليل الشيوع كما تقدم في الضوابط الممهِّدة، وكما نبه الخطيب الإسكافي وأكد بالإشارة إلى قلة تكرر هذا الحرف في سورة النحل، فجملة ما تكرر منه في السورة كلها بالاستناد إلى ما أشار إليه الخطيب عشرون مرة. ولما لم يقع في آية فاطر ظاء لم يكن ثمة ثقل صوتي في الإظهار، فعُدل إليه فقيل ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ كما يفيد توجيه الخطيب. وهو صحيح، بشرط تقييده بأن المعنى ليس

---

(١) انظر: البرهان: ٢٤٤، وكشف المعاني: ٢٢٩، وغير ذلك.

(٢) درة التنزيل: ٢٦٦، ووقع في الأصل الظفر فصوبناه بـ الظعن استرشاداً بما نقل الكرماني عنه في البرهان. أما الأحرف السبعة المكررة التي وقع فيها ظاء في سورة النحل فهي: ظالمي أنفسهم ٢٨ ، و وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٣٣ ، و ظُلموا ٤١ ، و بظلمهم ٦١ ، و ظلموا ٨٥ ، و لا يُظلمون ١١١ ، و وهم ظالمون ١١٣ ، و وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ١١٨ ، و ينظرون ٣٣ ، و فانظروا ٣٦ ، و يُنظرون ٨٥ ، و يتفيأ ظلالُه ٤٨ ، و ظلّ ٥٨ ، و ظلالاً ٨١ ، و ظعنكم ٨٠ ، و عذاب عظيم ٩٤ و ١٠٦ ، و يعظكم ٩٠ ، و الموعظة ١٢٥ . ومجموع ذلك عشرون ظاء.

(٣) انظر: البرهان: ٢٤٥ - ٢٤٦، وكشف المعاني: ٢٢٩.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٢٢٢، و البرهان: ٢٢٤، وملاك التأويل: ٢: ٥٢١، والعقد الجميل: ٩٣.

من القوة بالدرجة التي تستدعي مشاكلة الثقل الصوتي، ودليل ذلك أن الظاءين وقعتا في جملتين متجاورتين بخلاف ما ذكره الخطيب؛ نحو قوله تعالى ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] وإنما وقعتا كذلك لمشاكلة الصوت للمعنى كما شرحنا في كلامنا على هذه الآية في مثال «نزل - أنزل» بل قد تقارب التجاور بين الظاءين تقارباً شديداً؛ فوقعتا في كلمتين متتابعتين ليس بينهما فاصل؛ نحو قوله تعالى ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] و﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] و﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] و﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] و﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ١٢] فهذا التقارب الذي سها عنه الخطيب الإسكافي - رحمه الله - يدل على أن توجيهه الدائر على تجنب ثقل المجاورة الصوتية في المتشابهين لا يصح إلا إذا قُيد بعدم القوة المعنوية فيهما.

ومن أمثلة العدول بالمبدلات أيضاً لمراعاة تجنب ذلك الثقل قوله تعالى في سورة هود حكاية عن قوم صالح - عليه السلام - ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢] وفي سورة إبراهيم حكاية عن القوم المكذبين لرسلهم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (١) [إبراهيم: ٩] فعُدل عن التعبير بالتمام في ﴿إِنَّنَآ﴾ إلى التعبير بنقص النون في ﴿إِنَّا﴾ في سورة إبراهيم.

ونقص النون من ﴿إِنَّا﴾ جائز تخفيفاً(٢). و﴿تَدْعُونَآ﴾ في آية هود بنون واحدة هو على الأصل وكما يجب، لأنها ضمير عائد على قوم صالح، وهم المتكلمون بالفعل ﴿تَدْعُونَآ﴾ يخاطبون به صالحاً - عليه السلام - قال تعالى ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ [هود: ٦٢]. وكذلك ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ في آية إبراهيم بنونين على الأصل وكما يجب، لأن النون الأولى علامة رفع الفعل، والثانية ضمير عائد على أقوام الرسل، وهؤلاء الأقوام هم المتكلمون بـ ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ يخاطبون به رسلهم، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٢١.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢٤، وملاك التأويل: ٢: ٥٢١ - ٥٢٢، وغيرهما.

إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]

فلما كان في آية هود ﴿تَدْعُونَآ﴾ بنون واحدة لم يُستثقل وقوع ﴿إِنَّنَآ﴾ فيها بنونين - إحداهما مشددة - بخلاف آية إبراهيم فإنه يُستثقل فيها لوقوع ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ فيها بنونين لازم ذكرهما، فعُدل إلى ﴿إِنَّا﴾ تجنباً للثقل الناشئ من اجتماع أربع نونات، كما ذكر الكرماني وأبو جعفر بن الزبير وغيرهما[1].

ومع أن النون ليست ثقيلة في النطق وهي كثيرة الشيوع كما تقدم، فكان يمكن أن يقع هنا أربع نونات مع شيء من الثقل على اللسان لو كان ثمة قوة معنوية تتطلب المشاكلة، ولكن لم تكن، فالمعنى في آية إبراهيم أرق مما في آية هود كما يتضح من نص الآيتين السابق ذكرهما.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لتجنب ذلك الثقل قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] وفي سورة الزمر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [2] [الزمر: ١٨] فعُدل عن نقص «هم» إلى زيادته في الزمر.

والظاهر أن النقص في الأنعام لتجنب ثقل تكرر الهاء ست مرات في جملة واحدة، قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ [الأنعام: ٩٠]

فلو تكرر كذلك لتجاوز نسبة شيوعه بقدر الضعف أو أكثر، وهو إضافة إلى ذلك مما يحتاج إلى جهد عضلي زائد، ويزيد هذا الجهد هنا أنه مضموم ثلاث مرات، ولو زيد «هم» لصارت أربعاً، والضم ثقيل، فكان المناسب بسبب هذه الدواعي الصوتية تخفيف الثقل بنقص ﴿هُمْ﴾.

---

(١) انظر: البرهان: ٢٢٤، وملاك التأويل: ٢: ٥٢٢، والسيوطي، معترك الأقران: ٣: ٣١٢، وابن عاشور، محمد بن الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ١٢: ١١٠، و١٣: ١٩٨.

(٢) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ١٨١.

ولما خلا سياق آية الزمر من تلك الدواعي عُدل إلى زيادة ﴿هُمْ﴾ فجاء على الأصل، ولا سيما أن فيه ما يعادله - وهو ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ﴾ - قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لتجنب ذلك الثقل قوله تعالى في سورة البقرة

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] وفي سورة الأعراف

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ﴾ [1] [الأعراف: ١٦١] فعُدل عن تقديم الأمر بالسجود إلى تأخيره. وقد تقدم الكلام على مناسبة ذلك في مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للصوت، ولكن ثمة وجه آخر من المناسبة هذا موضع القول فيه.

أما آية البقرة فليس فيها ثقل صوتي يستدعي تقديماً أو تأخيراً، وليس في مجاورة ﴿حِطَّةٌ﴾ التي فيها حرفان ثقيلان الحاء والطاء لـ ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ التي فيها ثلاثة الخاء والطاء والكاف؛ ليس في هذه المجاورة ثقل صوتي؛ بسبب مدي الفتح في ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وتناسب أحدهما مع فتح الطاء من ﴿حِطَّةٌ﴾.

وأما آية الأعراف فوقع فيها ﴿خَطِيٓـَٰتِكُمْ﴾، وهي أثقل من ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾، لأنها تضمنت حرفاً رابعاً ثقيلاً زيادة على الثلاثة التي في تلك، وزاد ثقلها كثرة أحرفها؛ فهي من ثمانية أحرف وتلك من سبع، وانضاف إلى ذلك أن مد الطاء فيها ثقيل لكسره، وفي تلك خفيف لفتحه؛ لأن الفتحة أخف من الكسرة[2]. وبالجملة فإن ﴿خَطِيٓـَٰتِكُمْ﴾ أثقل من ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ لاحتياجها إلى جهد عضلي أكبر، فلم تحسن مجاورتها لـ ﴿حِطَّةٌ﴾ في الأعراف لتضمن هذه الكلمة حرفين ثقيلين يزداد الكلام بهما ثقلاً ويتطلب جهداً أكبر، فكان المناسب أن يُتجنب

---

(١) تقدم في العدول بمقدم ومؤخر المتعاطفين من الجمل، وفي مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للصوت.

(٢) انظر: سيبويه، الكتاب: ٤: ١٦٧.

هذا الثقل بالمباعدة بين ﴿حِطَّةٌ﴾ و﴿خَطِيٓـَٔتِكُمۡ﴾، وهو ما استدعى العدول إلى تقديم ﴿حِطَّةٌ﴾ وتأخير الأمر بالسجود.

على أنه كان يمكن أن يقع ذلك الثقل في آية الأعراف لو كان ثمة قوة معنوية تتطلب المشاكلة الصوتية، ولكن الآية خلت من ذلك، فكان العدول لتجنب الثقل أنسب، قال تعالى:

﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]

جـ - العدول عن التشابه لتناسب الموازنة الصوتية :

الموازنة الصوتية صورة ثالثة من صور التناسب الصوتي التي يراعيها العدول عن التشابه. وقد بحثها البلاغيون القدماء تحت هذا الاسم تارة، وتحت أسماء أخرى تارة؛ كالتعادل، والتكافؤ[(١)]، واعتدال الوزن، والتشطير، والمماثلة[(٢)]، ويريدون بها - وإن اختلفوا في بعض الفروع - تماثل ألفاظ الكلام أو بعضها في الوزن؛ كالتماثل بين كلمات الفاصلة؛ نحو ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥ - ١٦] أو بين كلمتين متجاورتين، أو بين كلمات متناظرة الموضع من القرينتين؛ كالكتاب والصراط، والمستبين والمستقيم في قوله تعالى ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[(٣)] [الصافات: ١١٧ - ١١٨].

ومن الموازنة أيضاً ما سماه بعض المعاصرين الموازنة الموضعية، وذلك «بأن يكون لفظ مناظراً لآخر في موضعه من القسيم الذي يوازنه»[(٤)] ويمكن أن يُمثل له بآيتي الصافات السابقتين، لأن أجزاء الثانية مناظرة لأجزاء الأولى في الموضع، فالثانية مركبة من فعل ففاعل فمفعول أول فثان فصفة، ولكل من هذه نظير في الأولى؛ إذ الأجزاء فيها مرتبة نفس الترتيب.

---

(١) انظر: إسماعيل، عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي: ٢٢٣.

(٢) انظر: مطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ١٤٣ و ٣٥٢ و ٦٤٦ - ٦٤٧ و ٦٥٥ - ٦٥٦.

(٣) انظر: الخطيب القزويني، الإيضاح؛ ضمن شروح التلخيص: ٤: ٤٥٥ وما بعدها، وابن أبي الإصبع، بديع القرآن: ١٠٧، وتحرير التحبير، له: ٢٩٧. وانظر أيضاً ما نقله د. أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية: ٦٤٦ من تعريف ابن مالك في المصباح: ٨٠.

(٤) الطيب المجذوب، د. عبد الله، المرشد: ٣١٢.

ويمكن أن يُدخل في الموازنة أيضاً ما سماه بعض القدماء المؤاخاة بين المباني أو المؤاخاة في الألفاظ؛ وهو مراعاة الأحكام اللفظية كالإفراد والتثنية والجمع وغير ذلك، فإذا كان الأول مفرداً استُحب في مقابله الإفراد، وهكذا إذا كان جمعاً قوبل بجمع، ولذلك عابوا على أبي نواس جمعه بين مفرد وجمع في معنىً واحد في قوله:

.....جلَّت عن النُّظَراء والمِثْل

واستحسنوا المؤاخاة بين جمعين: النظراء والأمثال، أو بين مفردين: النظير والمثل[1].

وجملة ما ذكروه من تلك الموازنة راجعة إلى نوعين؛ موازنة تركيبية: يكون التركيب فيها موازناً لنظيره موازنة موضعية فقط، أو موضعية صرفية أو عروضية. وموازنة إفرادية: تُوازِن فيها كلمة كلمة أخرى مجاورة أو موازية.

وفي النوعين الموازنة حاصلة في الصورة الصوتية، وبها كما رأى ضياء الدين بن الأثير وغيره يكتسب الكلام طلاوة ورونقاً، ويكون الإيقاع أخاذاً[2]، ولذلك يراعيها القرآن في عدوله عن التشابه، ولا سيما أن معظم آياته كما رأى ابن الأثير جارية على منهجها، وأنه لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة [3].

وسنتناول مراعاة العدول لهذه الصورة من التناسب في فقرتين تبعاً لنوعيها؛ الموازنة التركيبية فالإفرادية. ولا مناص من التداخل بين أمثلة هذين النوعين، بيد أن العمدة في وضع المثال في هذا النوع أو ذاك هو آية العدول.

- العدول عن التشابه لتناسب الموازنة التركيبية :

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذا اللون من التناسب قوله تعالى في سورة البقرة ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] وفي سور الأنعام والأعراف والمؤمنين ﴿لَا نُكَلِّفُ

(١) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ٣: ١٥٦ - ١٥٧، وابن النقيب، مقدمة تفسير ابن النقيب: ١٩١، وابن حمزة اليمني، الطراز: ٢: ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٢) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ٢٩١، والجندي، علي، صور البديع؛ فن الأسجاع: ٢: ٥٠، وإسماعيل، عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي: ٢٢٦.

(٣) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ٢٩٣.

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [1] [الأنعام: ١٥٢، والأعراف: ٤٢، والمؤمنون: ٦٢] فعدل القرآن عن بناء الفعل للمجهول إلى المعلوم في السور الثلاثة.

والوجه أن في آية البقرة ما يستدعي الموازنة التركيبية في بناء الفعل للمجهول، قال تعالى:

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]

فكان ﴿تُكَلَّفُ﴾ موازناً لـ ﴿تُضَآرَّ﴾ في البناء للمجهول، و﴿نَفْسٌ﴾ موازناً لـ ﴿وَالِدَةٌۢ﴾ في نيابة الفاعل.

ولم يقع في السور الثلاثة ما يستدعي تلك الموازنة، فعُدل إلى التعبير بالمعلوم.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] وفي سورة الشمس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [2] [الشمس: ٩] فعدل القرآن عن التعبير بصيغة تفعّل إلى صيغة فعّل.

أما التعبير بصيغة تفعّل فلموازنة ﴿فَصَلَّىٰ﴾ التي هي فاصلة الآية التالية موازنة إفراد، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٥]

لأن الكلمتين بوزن عروضي واحد.

وأما العدول إلى التعبير بصيغة فعّل فروعيت به الموازنة التركيبية بين آيته والآية التالية له، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]

فلما وقع ﴿قَدْ﴾ بإزاء ﴿قَدْ﴾، و﴿أَفْلَحَ﴾ بإزاء ﴿خَابَ﴾، و﴿مَّن﴾ بإزاء ﴿مَّن﴾، اقتضى تناسب الموازنة العدول إلى ﴿زَكَّىٰهَا﴾ ليقع بإزاء ﴿دَسَّىٰهَا﴾.

---

(١) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٢٨.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٥٠.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وفي سورة لقمان ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [1] [لقمان: ١٢] فعدل القرآن عن ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى ﴿حَمِيدٌ﴾.

أما آية آل عمران فجاء التعبير فيها موازناً لكلمات الفواصل التي تقدمته، قال تعالى:

﴿ .. .. ..قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

.. .. .. لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾

.. .. .. وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥-٩٧]

وأما آية لقمان فوقع في الآية التالية لها ما يستدعي الموازنة التركيبية، وهو ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والموازن لذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، فكان العدول إليه أنسب، ولذلك عُدل إليه عما وقع في مشابهه من قوله ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال تعالى:

﴿..... ومن كفر فإن الله غني حميد [١٢]

... لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم [١٣]﴾ [لقمان: ١٢ - ١٣]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوساً﴾ [الإسراء: ٨٣] وفي سورة فصلت ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [2] [فصلت: ٥١] فعُقبت الأولى بـ ﴿كان يؤوساً﴾ وعدل إلى تعقيب الثانية بـ ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

أما تعقيب الأولى فمناسب لكلمات الفواصل التي فُصلت بها الآيات المتقدمة، وهي «نصيراً، زهوقاً، خساراً» لأنها مع ﴿يؤوساً﴾ بوزن عروضي واحد، قال تعالى:

﴿..... واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً [٨٠]

وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً [٨١]

..... ولا يزيد الظالمين إلا خَساراً [٨٢]

---

(١) انظر: السابق: ٢٣ و٤٣.

(٢) انظر: السابق: ١١٥.

..... وإذا مسه الشر كان يؤوساً [٨٣]﴾ [الإسراء: ٨٠ - ٨٣]

وأما العدول إلى ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ في فصلت فاستدعاه تناسب الموازنة الموضعية مع ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ و﴿شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فيما اكتنف آية العدول، لأن في هذين كما في آية العدول مجروراً فصفته، وكلاهما بوزن واحد في آية العدول وفيما اكتنفها، قال تعالى:

﴿..... فلننبئنّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنّهم من عذاب غليظ [٥٠]

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض [٥١]

قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد [٥٢]﴾ [فصلت: ٥٠-٥٢]

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة هذا اللون من تناسب الموازنة قوله تعالى في سورة النحل: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] وفي سورة الزمر ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢] وكذلك في سورة غافر ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [1] [غافر: ٧٦] فعدل القرآن عن زيادة اللام في ﴿فَلَبِئْسَ﴾ إلى نقصها من آيتي الزمر وغافر.

أما الزيادة فمناسبة الزيادة في ﴿وَلَنِعْمَ﴾ فيما تلا الآية كما نبه الخطيب الإسكافي وغيره[2]، وقد حصلت بهذه المناسبة موازنة تركيبية موضعية بين ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ و﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في الآيتين المتتاليتين، قال تعالى:

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

.....وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ٢٩ - ٣٠]

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٦٢، و البرهان: ٢٤٣، وملاك التأويل: ٢: ٦٠٠، وكشف المعاني: ٢٢٦ - ٢٢٧، والعقد الجميل: ١١٠.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٦٣، والبرهان: ٢٤٣، وكشف المعاني: ٢٢٧.

فكان ﴿فَلَبِئْسَ﴾ مع ﴿وَلَنِعْمَ﴾ بوزن واحد، وتوازنت الجملتان موازنة موضعية في حرف الوصل فاللام فالفعل فالفاعل فالمضاف إليه.

وأما العدول إلى نقص اللام من آية الزمر فاستدعاه تناسب الموازنة التركيبية الموضعية بين ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبين ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، وإن فصل بينهما آية، قال تعالى:

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾

..... نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۚ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٢ - ٧٤]

فالبعدول إلى نقص اللام توازن ﴿فَبِئْسَ﴾ مع ﴿فَنِعْمَ﴾، وحصلت الموازنة الموضعية بين الجملتين في حرف الوصل فالفعل فالفاعل فالمضاف إليه.

ولم يقع في آية غافر ولا فيما اكتنفها ما يستدعي الموازنة بزيادة اللام، فعُدل إلى نقصها، وهو أنسب لأنه أخصر.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤] وفي سورة القصص ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩] فزيدت «إن» واللام في النمل، وعُدل إلى نقصانهما في آية القصص. وقد تقدم شرح وجه من أوجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب المشاكلة اللفظية، وثمة وجه صوتي هذا موضع بيانه.

أما الزيادة في النمل فموازَن بها قوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ الذي زيد فيه «إن» واللام أيضاً، وذلك في الآية التي تقدمت الموجهَّة، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

. . . وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النمل: ٧٣ - ٧٤]

فكان ﴿لَيَعْلَمُ﴾ مقارباً في الوزن لـ ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾، وما قبل هذا وذاك في الآيتين متناسب لتطابقه فيهما.

وأما العدول إلى النقص في آية القصص فروعيت به موازنة نظيره فيما تقدم الآية، قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [القصص: ٦٨ - ٦٩]

فبالعدول حصلت الموازنة بين ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿يَخْلُقُ﴾، و﴿مَآ﴾ و﴿مَآ﴾، و﴿تَكُنُّ﴾ و﴿يَشَآءُ﴾، وبالعدول أيضاً حصلت الموازنة الموضعية؛ إذ إن التركيبين متناظران في الافتتاح بالواو فالمبتدأ فالمضارع فالموصول فالمضارع.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] وفي سورة فاطر ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ [1] [فاطر: ١٢] فعُدل إلى زيادة ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾.

والنقص من آية الفرقان مناسب، لأنه به يتحقق التوازن مع ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]

فهذا توازن عروضي مع موازنة موضعية.

وعُدل إلى الزيادة في آية فاطر لداعية معنوية، وهي قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾، فاقتضى هذا عدم الموازنة؛ لأنها تسوية، قال تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]

فالعدول عن التشابه هنا ليشترك الصوت والمعنى في أداء المراد؛ فيدل عدم التوزان الصوتي على عدم الاستواء المعنوي؛ بخلاف آية الفرقان التي فيها ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي خلطهما، فكان التوازن الصوتي هناك أنسب لمعناها.

---

(١) انظر: العقد الجميل: ١٢٨.

وهذا المثال يدل على أن مراعاة العدول للموازنة الصوتية ليست مراعاة لزينة لفظية مجردة، وإنما هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعنى، بل هي لا تنفك عنه. ولا نريد أن نقرن هنا تناسب الموازنة الصوتية بالتناسب المعنوي فيما سيأتي من أمثلة، لأن ما يعنينا هنا هو التمثيل لمراعاة العدول لتناسب الموازنة الصوتية المجردة، ولأنه كفانا مؤونة ربط ذلك بالمعنى ما ذكرناه في المثال السابق وما أفردناه من مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للمعنى.

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لمراعاة هذا اللون من تناسب الموازنة قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وفي سورة النحل ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[(١)] [النحل: ٨٩] فأخر ﴿شَهِيدًا﴾ في آية النساء ثم عُدل إلى تقديمه في النحل.

أما تأخيره في آية النساء فليقع فاصلة للآية ويوازن كلمات الفواصل التي اكتنفته، قال تعالى:

﴿ .... وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

.... وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

.... وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

....وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾

.... وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٣٨ - ٤٢]

وأما العدول إلى تقديمه فاستدعته الموازنة الموضعية مع ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾، قال أبو جعفر ابن الزبير: «آية النحل تقدمها قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩] فتقدم اسم الشهيد على المشهود عليه، فورد ما نُسق على ذلك من الإخبار بشهادته على أمته مرتباً على ما تقدم من مقتضى النظم في التناظر والتناسب، فقيل: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩] متوازناً مع قوله ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ [النحل: ٨٩]»[(٢)].

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) السابق: ١: ٢٠١.

- العدول عن التشابه لتناسب الموازنة الإفرادية :

أ - العدول بالمبدلات :

ومن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذا اللون من التناسب قوله تعالى في سورتي الحجر والذاريات ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥، والذاريات: ١٥] وفي سورة المرسلات ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١] فعُدل عن ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إلى ﴿ظِلَٰلٍ﴾. وقد بينا وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول للموافقة اللفظية، وثمة وجه آخر صوتي؛ هذا موضع بيانه.

وقد قلنا هناك إن التعبير بـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ هو المطرد في القرآن الكريم فيما يشبه نمط آيتي الحجر والذاريات.

أما انفراد آية المرسلات بالعدول عن مشابهاتها النمطية وغير النمطية إلى التعبير بـ ﴿ظِلَٰلٍ﴾ فاستدعاه - والله أعلم - تناسب الموازنة الإفرادية مع ﴿فَوَٰكِهُ﴾، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾
وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٢]

لما بين الكلمتين من تقارب في الصيغة والوزن.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وفي سورة الزمر ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ﴾ [1] [الزمر: ٢٠] فعُدل عن ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إلى ﴿غُرَفٌ﴾.

والتعبير بـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ هو النمط المطرد في القرآن الكريم [2]. وانفردت آية الزمر بالعدول إلى ﴿غُرَفٌ﴾ لاستدعاء الموازنة مع ﴿ظُلَلٌ﴾ في الإخبار عن أهل النار، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾
لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

(١) انظر: العقد الجميل: ٤٩.
(٢) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ١٨١ - ١٨٢.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ ...﴾ الآية [الزمر: ١٥ - ٢٠].

وتناسب الموازنة بين الكلمتين ظاهر مع أن الفاصل بينهما طويل.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ١٩] وفي سورة الزخرف ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾[1] [الزخرف: ٧٣] فعدل عن الجمع إلى الإفراد.

قال الكرماني: «راعى في السورتين لفظ الجنة، وكانت في هذه السورة ﴿جَنَّتٍ﴾ بالجمع، فقال ﴿فَوَٰكِهُ﴾ بالجمع، وفي الزخرف ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ بلفظ الواحدة، وإن كانت هذه جنة الخلد، لكن راعى اللفظ فقال ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾»[2] أي أنه روعي تناسب الموازنة في الجمع والإفراد، فوازن ﴿فَوَٰكِهُ﴾ ﴿جَنَّتٍ﴾ في سورة المؤمنين، قال تعالى:

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩].

وثمة موازنة تركيبية أيضاً حصلت بالتعبير بالجمع هنا كما نبه الكرماني[3]، وهي بين ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وبين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فيما بعد الآية، قال تعالى:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾

[المؤمنون: ٢٠-٢١]

---

(١) انظر: البرهان: ٢٧٥، والعقد الجميل: ١٢٦.

(٢) البرهان: ٢٧٥.

(٣) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

وفي الزخرف عدل إلى التعبير بـ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ لموازنة الإفراد في ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ كما نبه الكرماني فيما سبق، قال تعالى:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٢ - ٧٣]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] وفي سورة الكهف ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[1] [الكهف: ٢] فعُدل عن ﴿كَبِيرًا﴾ إلى ﴿حُسْنًا﴾.

أما التعبير بـ ﴿كَبِيرًا﴾ في آية الإسراء فمناسب لكلمات الفواصل التي فُصلت بها الآيات المكتنفة، وهي «حصيراً، أليماً، عجولاً» لأنها و﴿كَبِيرًا﴾ بوزن عروضي واحد، قال تعالى:

﴿ ..... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾

وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨ - ١١]

وأما العدول إلى التعبير بـ ﴿حُسْنًا﴾ فاستدعاه تناسب الموازنة الإفرادية مع الفواصل التي فصلت بها الآيات المكتنفة، وهي «عِوَجاً، أبداً، ولداً، كذباً، أسفاً، عملاً، جُرُزاً، عجباً، رشَداً، عدداً، أمداً» فكلها مع ﴿حُسْنًا﴾ بوزن عروضي واحد، قال تعالى:

﴿ ..... وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ الآيات [الكهف: ١ - ٥]

---

(١) انظر: البرهان: ٢٤٩، والعقد الجميل: ١١٣.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة يونس ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ [يونس: ١٢] وفي سورة الزمر ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ [الزمر: ٨] وكذلك في آية أخرى من سورة الزمر ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾[1] [الزمر: ٤٩] فعُدل عن التعريف إلى التنكير.

أما التعبير بالتعريف فذكر الكرماني أنه إشارة إلى ما تقدم من لفظ ﴿ٱلشَّرَّ﴾ في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الآية [يونس: ١١ - ١٢]

فإن الضر والشر كما قال الكرماني واحد[2]. والذي يعنينا هو الموازنة الصوتية، وهي حاصلة بين الكلمتين.

وفي آيتي الزمر جاء ما يستدعي الموازنة في التنكير؛ وهو ﴿نِعْمَةً﴾، فكان العدول إلى التنكير أنسب؛ ففي الآية الأولى:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ ...﴾ الآية [الزمر: ٨]

وفي الثانية:

﴿... فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا ...﴾ الآية [الزمر: ٤٩].

فتنكير ﴿نِعْمَةً﴾ يناسبه تنكير ﴿ضُرٌّ﴾ لما بينهما من المقاربة في الوزن العروضي، ولم يكن ليناسب هنا التعبير بـ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ معرفاً لزوال تلك المقاربة، فقد حصلت الموازنة هنا كما كانت حاصلة في آية يونس، وجاء كل من المتشابهين في موقعه الأنسب له.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة التوبة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وفي سورة الفتح ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] وفي سورة الصف كما في التوبة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[3] [الصف: ٩] فعُدل عن ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ إلى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

---

(١) انظر: البرهان: ٢١٤، والعقد الجميل: ٩٢.

(٢) انظر: البرهان: ٢١٤.

(٣) انظر: العقد الجميل: ٨٩ - ٩٠.

شَهِيدًا﴾ ثم إلى ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، والعدول بالجملة عن ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ إلى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ووجه ذلك أن التعقيب بـ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ موازن به ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيما تقدم آيتي التوبة والصف، قال تعالى في التوبة:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٢ - ٣٣].

وقال سبحانه في الصف:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف: ٨ - ٩]

ولم يقع في سياق آية الفتح ما يطلب تلك الموازنة، وإنما اكتنفها آيات فُصلت بكلمات على وزن فعيل، فاقتضى تناسب الموازنة الإفرادية العدول عن التشابه لتكون الآية مفصولة بـ ﴿شَهِيدًا﴾ الذي هو على وزن فعيل، فقيل: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، قال تعالى:

﴿ .....وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

.....لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

.....وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

.....فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

....وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٥ - ٢٩]

٢ - العدول بالزوائد والنواقص:

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة هذا اللون من التناسب قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وفي سورة ق ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ

بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] فعُدل إلى زيادة ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وقد بينا وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول للمشاكلة اللفظية، وثمة وجه آخر صوتي؛ هذا موضع بيانه.

أما النقص في الشعراء فلتناسب الموازنة في قوله تعالى:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء: ٩٠ - ٩١]

فـ ﴿أُزْلِفَتْ﴾ بوزن ﴿وَبُرِّزَتِ﴾، وبين الجملتين أيضاً موازنة موضعية، فقد رُتبت العناصر في كلتيهما ترتيباً متوازياً؛ العاطف فالفعل فنائبه فالجار ومجروره.

وأما آية ق فليس في سياقها ما يستدعي تلك الموازنة، وإنما اكتنفها آيات؛ فاصلة كل منها بوزن «فعيل»، فروعيت موازنتها الإفرادية بالعدول عن التشابه إلى زيادة ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ لتكون كلمة الفاصلة ﴿بَعِيدٍ﴾ بنفس الوزن، قال تعالى:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٠ - ٣٣]

وجرت فواصل الآيات على هذا النهج إلى آخر السورة، وهو توازن بيّن لولا العدول لما حصل.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] وفي سورة الدخان ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [1] [الدخان: ٢٣] فعُدل عن نقص «ليلاً» إلى زيادته.

ولم يقع في آية الشعراء ولا فيما اكتنفها ما يستدعي تلك الزيادة لتحقيق موازنة صوتية.

وعُدل إلى الزيادة في آية الدخان مراعاة لما يوازنها من قوله ﴿رَهْوًا﴾ في الآية التالية لآية العدول، قال تعالى:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: ٢٣ - ٢٤]

---

(١) انظر: العقد الجميل: ١٢١.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في أربع آيات من ثلاث سور ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا - أَءِنَّا ﴾ [المؤمنون: ٨٢، والصافات: ١٦ و ٥٣، والواقعة: ٤٧] وفي سورة ق ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ - ذَٰلِكَ ﴾ [1] [ق: ٣] فعُدل عن زيادة ﴿وَعِظَٰمًا﴾ إلى نقصه من آية ق.

ووجه ذلك أنه لما وقع في الآيات الأربع ﴿تُرَابًا﴾ و﴿أإنا﴾، وهما بوزن عروضي واحد كانت زيادة ﴿عِظَامًا﴾ بينهما التي هي بنفس الوزن أنسب شيء.

ولما لم يقع في آية ق من ذينك المتوازنين سوى ﴿تُرَابًا﴾لم تقو مناسبة زيادة ﴿عِظَامًا﴾ فيها قوتها في مشابهاتها، فلهذا - والله أعلم - عُدل عن الزيادة هنا إلى النقص، مع دواع أخرى من التناسب اللفظي والمعنوي ليس هذا موضع شرحها.

د - العدول عن التشابه للتناسب في المقدار :

التناسب في المقدار صورة من صور التناسب الصوتي عند القدماء، لأن المراد به التناسب في الطول والقصر بين فقرات الكلام المقترن بعضها ببعض[2].

وهو من محسنات الكلام عندهم، لأن الأحسن في الكلام المنثور كما رأوا تساوي قرائنه، أو أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى[3]، أي أن مدار الحسن على التناسب تساوياً كان أو تقارباً.

ويمكن تحديد القرائن في القرآن الكريم بمعلمين؛ الأول مواضع الوقف المنصوص عليها، ونعني بها الرموز التي وضعت فوق الكلمات في المصاحف، وهي (ۘ ، قلى ، صلى، ج ،)[4]، ومع أنها تختلف في دلالتها على لزوم الوقف أو أولويته أو أولوية الوصل، أو استوائهما أو

---

(١) انظر: السابق: ١١٤.

(٢) انظر: ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) انظر: السابق: ١٩٣، والزركشي، البرهان: ١: ٧٧ - ٧٨.

(٤) انظر: نسخة القرآن الكريم المطبوعة بمؤسسة علوم القرآن الكريم، منار للنشر والتوزيع، انظر منها: علامات الوقف ومصطلحات الضبط: ٦١٢. وثمة نسخ أخرى اعتُمدت فيها رموز مغايرة مثل .، ط، ٪، ز، ص انظر الصفحة الأولى من النسخة التي طبعتها المطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٣٨٢ هـ. وسنعتمد رموز النسخة السابقة، وسنستعين بنسخة الهاشمية إذا كان ثمة وقوف لم يُشر إليها في السابقة.

اختيار أحد الوقفين، فإن الحاصل أنها كلها رموز وقف، مما يسمح بعدّها شيئاً واحداً. ويضاف إلى تلك المواضع الفواصل، لأن الوقف عليها سنة [١].

وسنستعين ببعض كتب الوقف، لأن ثمة مواضع ذُكرت في هذه الكتب لم يشر إليها في المصاحف.

والمعلم الثاني الذي سنستعين به في تحديد القرائن هو الجمل - وبالمفردات عند الضرورة - وإن لم يتم بها المعنى؛ كجملة الشرط دون جوابه، والجملة المعطوف عليها دون المعطوفة، ونحو ذلك من الجمل التي تحتاج إلى ما يتممها في المعنى أو الإعراب، لأن الوقف عليها، أو على نظائرها من المفردات، دون ذلك المتمم - وإن كان قبيحاً بحسب تقسيمات القراء واصطلاحهم - جائز، لجواز الوقف على كل كلمة عند الضرورة[٢]. وسنضطر إلى الاستعانة بذلك لا على أنه وقف، بل على أنه تقسيم تفرضه طريقة البحث التوضيحية، ولذلك لن نستعين بهذا المعلم إلا إذا خلا المتشابهان من وقف منصوص عليه. على أنه سيتبين في التطبيق أن الاستعانة بهذا المعلم صالحة كل الصلاحية، وأنها أدل على المراد وأكثر اطراداً وأدق في الاستنتاج، ولكن لابد من الاتباع بالاستعانة بالوقف، لأن الأداء عليه.

والمهم أنه بالوقف - وهو من الفنون الجليلة عند القراء[٣] - الذي روعي في أنواعه تعلق الكلام ببعضه في اللفظ والمعنى، وبالتقسيم؛ تنقسم الآيات إلى أقسام قد تأتي متناسبة في المقدار، شبيهة بالقرائن المتقاربة في الوزن[٤].

ولتناسب المقدار بين القرائن في القرآن الكريم قيمة إيقاعية؛ حاولت بعض الدراسات التنبيه عليها وإبرازها في تطبيقات على سور مفردة[٥]، «واستفاد بعض الخطاطين من التوازن

---

(١) انظر: ابن الجزري، النشر: ١: ٢٢٦، و الأنصاري، زكريا، المقصد لتلخيص ما في المرشد: ٥.

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨، وقارن بالنشر لابن الجزري: ١: ٢٣٠ - ٢٣١.

(٣) انظر: الزركشي، البرهان: ١: ٣٤٢ وما بعدها.

(٤) انظر: أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٣٣٩.

(٥) انظر ما أشار إليه أحمد أبو زيد في كتابه التناسب البياني في القرآن: ٣٤٢ - ٣٤٣، وانظر كذلك الحسناوي، محمد، الفاصلة في القرآن: ٢١٤ - ٢١٥.

أو تناسب المقدار بين بعض الآيات، أو بين أقسامها التي تشبه القرائن المتقاربة في الوزن، استفاد من ذلك في تجميل خط المصحف، فكتب الآيات المتوازنة أو المتقاربة في الوزن بطريقة تبدو معها وكأنها مقطوعات من الكلام الموزون القائم على التعادل وتساوي الأجزاء»[1].

وهذه نماذج مصورة من المصحف المذكور توضح ذلك التناسب في المقدار[2]:

نموذج 1: (سورة الشعراء)

نموذج 2 : (سورة الصافات)

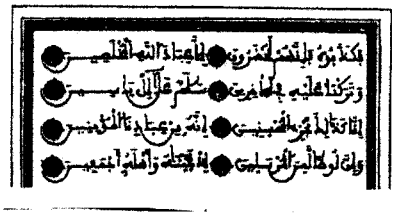

يتمثل تناسب المقدار في كون الآيات في النموذج الأول متوازنة بحيث سمحت للخطاط بكتابتها متعادلة مع إضافة تحلية زخرفية.

وفي النموذج الثاني يبدو التناسب بين الآيات مزدوجاً

(١) أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٣٤٣.

(٢) صورناها عن المرجع السابق: ٣٤٤ - ٣٤٥، وقد ذكر صاحب المرجع في الحاشية ٣٢ من الصفحة: ٣٤٣: أن المصحف المذكور برواية حفص، وأن الذي خطه وزينه الشيخ الحاج زهير ناس مملوك.

نموذج ٣ : (سورة التكوير)

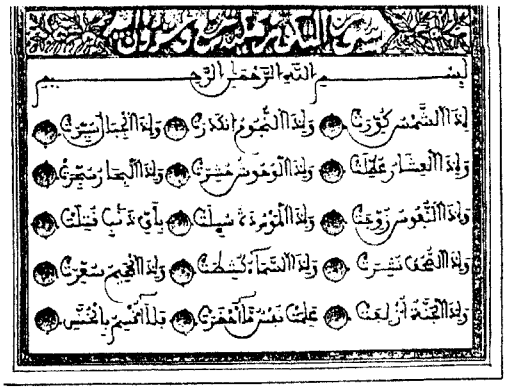

نموذج 4 : (سورة الطور)

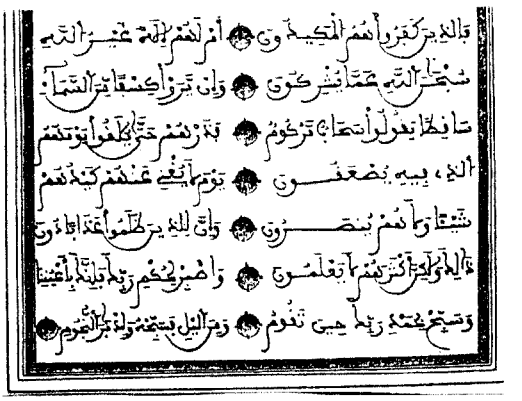

يبدو تناسب المقدار واضحا في النموذجين: ففي النموذج الثالث

وضع الخطاط الآيات في تناسب مثلث وفي النموذج الرابع وضعها في تناسب مزدوج

وقد راعى القرآن الكريم في عدوله عن التشابه ذلك التناسب في المقدار، ليكون كل من المتشابهين مناسباً لما اقترن به. وهذا أوان الشروع في بيان ذلك بالتطبيق.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة ذلك التناسب قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠] وفي سورة لقمان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[1] [لقمان: ٢١] فعدل القرآن عن ﴿أَلْفَيْنَا﴾ إلى ﴿وَجَدْنَا﴾.

قال أبو جعفر بن الزبير «ألفى أكثر حروفاً من وجد، فناسب لفظ ألفى طول آية البقرة، وناسب لفظ وجد إيجاز آية لقمان، مراعاة لفظية ملحوظة في البلاغة»[2] وحقيقة ذلك مناسبة مقدار القرينة في كل من المتشابهين، لأن مقدار المتشابهين واحد، وإنما الاختلاف في مقدار قرينتهما، أما آية البقرة فهي:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]

وأما آية لقمان فهي :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]

فالوقف في المتشابهين على ﴿ءَابَآءَنَآ﴾، والقرينة في البقرة ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ إلى ﴿يَهْتَدُونَ﴾، وفي لقمان ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾، وهي في البقرة أطول منها في لقمان، لأنها في البقرة مركبة من واحد وعشرين مقطعاً[3]، وفي لقمان من ثمانية عشر،

---

(١) تقدم في العدول بالمبدلات اللفظية المتقاربة.

(٢) ملاك التأويل: ١: ١٠٤.

(٣) المقطع كما عرفه د. القضماني: "أصغر وحدة كلامية منظومة لا تحمل معنىً بذاتها، لكنها تجسد السمات النظمية الصوتية في الكلام وتحمل نبر الكلمة. وهو يتألف من اجتماع صامت وصائت ضمن ترتيب معين يحدد طبيعة المقطع ونوعه" القضماني، د. رضوان، مدخل إلى اللسانيات: ٩٧. والمراد بالصامت الحرف الصحيح أو الصوت الساكن، وبالصائت حرف المد واللين - أي حرف العلة =

ومن هنا جاء طول آية البقرة الذي نبه عليه أبو جعفر، فالطول طول القرينة، فلما طالت جاء التعبير بـ ﴿أَلْفَيْنَا﴾ في قرينتها مناسباً؛ لأنه أكثر حروفاً من ﴿وَجَدْنَا﴾ كما عبر أبو جعفر، أو لأنه مؤلف من ثلاثة مقاطع طويلة [1] «أَلْ - فَيْ - نَا» و﴿وَجَدْنَا﴾ مؤلف من مقطع قصير واثنين طويلين «وَ - جَدْ - نَا». ولما كانت القرينة في آية لقمان أقصر استدعت مناسبتها العدول عن التشابه إلى التعبير بـ ﴿وَجَدْنَا﴾ لأنه أقصر.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي الأعراف ويونس ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣، ويونس: ٧٥] وفي سورة المؤمنين ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾[2] [المؤمنون: ٤٦] فعدل القرآن عن التعبير بـ ﴿مجرمين﴾ إلى التعبير بـ ﴿عالين﴾.

أما آيتا الأعراف ويونس ففيهما وقف على ما قبل ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، وقد طالت القرينة من بداية الآية إلى ذلك الوقف فيهما، فجاء التعبير بـ ﴿مجرمين﴾ المؤلف من ثلاثة مقاطع مناسباً لذلك، لأنه أطول من ﴿عالين﴾ المؤلف من مقطعين، قال تعالى في آية الأعراف:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]

= والحركة أيضاً. وأنواع المقاطع في العربية خمسة كما حددها د. إبراهيم أنيس؛ اثنان مفتوحان؛ أي ينتهيان بصائت، وهما:

١ - صوت ساكن وصوت لين قصير، نحو الضاد مع الفتحة، أو الراء مع الفتحة، أو الباء مع الفتحة من ضَرَبَ.

٢ - صوت ساكن وصوت لين طويل، نحو الميم والألف ما.

وثلاثة مغلقة؛ أي تنتهي بصامت، وهي:

٣ - صوت ساكن وصوت لين قصير وصوت ساكن، نحو اللام والفتحة والميم في لَم.

٤ - صوت ساكن وصوت لين طويل وصوت ساكن؛ نحو القاف والألف واللام الساكنة في قالْ.

٥ - صوت ساكن وصوت لين قصير وصوتان ساكنان، نحو التاء والفتحة والدال المشددة في تَدّ من مُمْتَدّ. انظر أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ١٦٣.

(١) المقطع الطويل هو كل مقطع مفتوح مؤلف من صوت ساكن وصوت لين طويل، نحو ما، وكذلك كل مقطع مغلق. أما المقطع القصير فهو المؤلف من صوت ساكن وصوت لين قصير، نحو وَ. انظر: القضماني، د. رضوان، مدخل إلى اللسانيات: ٩٨.

(٢) انظر: العقد الجميل: ٨٣.

فالوقف على ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[1].

وقال سبحانه في آية يونس:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥]

فالوقف على ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جائز[2].

وأما آية المؤمنين فالمقترن بها قصير، ولا وقف عليه، قال تعالى:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]

فلما قصر هذا المقترن استدعت مناسبته في المقدار العدول عن ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ إلى ﴿عَالِينَ﴾ لأنه أقصر.

على أنه إذا عُدت آية المؤمنين كلها قرينة واحدة فإن العدول فيها إلى ﴿عَالِينَ﴾ مناسب لمقدار الآيات التي اكتنفتها والتي هي قرائن لها، قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الآيات [المؤمنون: ٤٥ - ٤٧]

وذلك بخلاف آيتي الأعراف ويونس، إذ كانت الآيات التي اقترنت بهما أطول.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥] وفي سورة الشعراء ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[3] [الشعراء: ٦] فعدل القرآن عن التعبير بسوف إلى التعبير بالسين.

ووجه ذلك كما ذكر الخطيب الإسكافي وغيره أن ما في الأنعام مقترن باستيفاء اللفظ، لأن الآية:

---

(١) انظر الرمز فوق الكلمة في نسخة المصحف المطبوعة في المطبعة الهاشمية سنة ١٣٨٢ هـ، وانظر أيضاً: الأنصاري، زكريا، المقصد: ٣٨.

(٢) انظر: نسخة المصحف المطبوعة في المطبعة الهاشمية.

(٣) انظر: درة التنزيل: ١٠٧، والبرهان: ١٦٤، وملاك التأويل: ١: ٢٨٠، وكشف المعاني: ١٥٤، والعقد الجميل: ٦٠.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام: ٥]

وما في الشعراء مقترن باختصار اللفظ، لأن الآية:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ [الشعراء: ٦]

فعُدل إلى التعبير بالسين هنا لمناسبة الاختصار[1]، هذا ما نبهوا عليه. وهو يفيد أن القرينة في آية الأنعام طويلة؛ فناسبها التعبير بـ﴿فَسَوْفَ﴾ لطوله، وأنه لما قصرت في آية الشعراء استدعى التناسب في المقدار العدول إلى التعبير بالسين لقصره، وذلك لأن ثمة وقفاً على ﴿كَذَّبُوا۟﴾ في آية الشعراء نصت عليه بعض كتب هذا الفن[2]، وإن لم يُشر إليه في نسختي المصحف اللتين اعتمدناهما.

على أن التناسب حاصل ولو لم يُراع ذلك الوقف، لأن وصل ﴿كَذَّبُوا۟﴾ بـ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ يجعل الآية كلها بمنزلة قرينة واحدة للآية التالية، وهما متناسبتان في مقدارهما، قال تعالى:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشعراء: ٦ - ٧]

ولولا العدول لما تحققت هذه المناسبة، لأنه لو عبر هنا بـ﴿فَسَوْفَ﴾ لكانت مقاطع الآية أزيد من مقاطع قرينتها، على حين هي بالعدول مساوية لمقاطع تلك القرينة؛ فكل منهما مؤلف من اثنين وعشرين مقطعاً.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة مريم ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [مريم: ٨١] وفي سورة الفرقان ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: ٣] وفي سورة يس كما في سورة مريم ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾[3] [يس: ٧٤] والعدول بالإجمال عن الإظهار إلى الإضمار.

والتعبير بالإظهار في آيتي مريم ويس مناسب أتم مناسبة، لأنه به تساوى صدر القرينتين في عدد المقاطع، قال تعالى في سورة مريم:

---

(١) انظر: درة التنزيل: ١٠٨، والبرهان: ١٦٤، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٧٥، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٥٠، والآلوسي، روح المعاني: ٧: ٩٣.

(٢) انظر: الأنصاري، زكريا، المقصد: ٦٣.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٩١، والبرهان: ٢٨١ و٣١٣، وملاك التأويل: ٢: ٧٤٣، وكشف المعاني: ٣٠٥.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]

فليس في الآيتين وقف إلا على ﴿كَلَّاۚ﴾، وهو جائز، فيمكن الوصل، فإذا روعي هذا الوصل فلا يبقى وقف في الآيتين إلا على الفاصلة، وبهذا تكون الآيتان قرينتين تساوى صدرهما ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ مع ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ فكل منهما مؤلف من ثلاثة عشر مقطعاً.

وكذلك آية يس فصدرها مساوٍ لصدر الآية السابقة لها، قال تعالى:

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس: ٧٣ - ٧٤]

فثمة وقف على ﴿وَمَشَارِبُۖ﴾، إذا روعي كانت مقاطع كل من الصدرين ثلاثة عشر كالعدد في آيتي مريم السابقتين.

أما العدول إلى التعبير بالإضمار في سورة الفرقان فمناسب أتم مناسبة أيضاً، لأنه به تساوت القرينتان في عدد المقاطع، قال تعالى:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان: ٣]

فثمة وقف على ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كما نصت كتب الوقف[1]، إذا روعي ونُوّن ﴿ءَالِهَةً﴾ - لأنه موصول لا وقف عليه - كانت مقاطع القرينتين متساوية؛ فكل منهما مؤلف من اثني عشر مقطعاً، ولولا العدول لفات التناسب، لأنه حينئذ تكون مقاطع القرينة الأولى ثلاثة عشر، ومقاطع الثانية اثني عشر. فسبحان منزل هذا الكتاب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١] وفي سورة فاطر ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ [فاطر: ٤٥] فعدل القرآن عن الإضمار في ﴿عَلَيْهَاۖ﴾ إلى الإظهار في ﴿عَلَىٰ

(١) انظر: الأنصاري، زكريا، المقصد: ٦٢.

ظَهۡرِهَا﴾. وقد بينا وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتجنب ثقل المجاورة الصوتية، وثمة وجه صوتي آخر؛ هذا موضع بيانه.

قال أبو جعفر بن الزبير: «وقيل هنا ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥] والضمير للأرض فسره السياق الأول، فقيل ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ ليناسب في طول تركيبه قوله ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ [فاطر: ٤٥] كما ناسب قوله ﴿عَلَيۡهَا﴾ [النحل: ٦١] في الآية الأولى قوله ﴿بِظُلۡمِهِمۡ﴾ [النحل: ٦١] في قلة حروفه تناسب التوازن والتناظر والتقابل»[1] وبهذا التناسب في التركيب نوسب بين كل من المتشابهين وقرينته، فلما قصرت في النحل بسبب قصر ﴿بِظُلۡمِهِمۡ﴾ الذي هو من أربعة مقاطع ناسب التعبير بـ ﴿عَلَيۡهَا﴾، ولما طالت في فاطر بسبب طول ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ الذي هو من خمسة مقاطع ناسبها العدول إلى التعبير بالأطول ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾.

وجدير بالذكر أنه ليس ثمة وقف على ﴿بِظُلۡمِهِمۡ﴾ ولا على ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، وإنما هو تقسيم قسمناه بحسب الجمل كما أشرنا في مقدمة هذا اللون من التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ الآية [الأنفال: ١٣] وفي سورة الحشر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ الآية [الحشر: ٤] فعدل القرآن عن الفك إلى الإدغام ﴿يُشَآقِّ﴾ في الحشر. وقد سبق توجيه ذلك في مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للمعنى، وقد راعى العدول أوجهاً صوتية أخرى، منها مناسبة القرينة في المقدار.

وبيان ذلك أن الفعل في آية الأنفال اقترن بمفعول ومعطوف، وهو في:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]

ثم جاء الجواب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، فطالت قرينة فعل الشرط بالعطف، فناسبه طول الفعل بفك الإدغام ليكون الحرفان موازنين للكلمتين المتعاطفتين، لأن العطف كما ذكر أبو جعفر بن الزبير يناسب الفك[2].

---

(١) ملاك التأويل: ٢: ٦٠٧.

(٢) انظر: السابق: ١: ٢١٥.

ولم تطل القرينة في آية الحشر، لأنه ليس ثم عطف، وإنما جاء الجواب عقب المفعول في: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢]

فاقتضت مناسبة القرينة في القصر العدول إلى الإدغام الذي هو أقصر من الفك؛ من حيث كون القاف منطوقة مرة واحدة، فهي موازنة للمفعول الذي هو كلمة واحدة غير معطوفة.

وهذا يكاد يكون مطرداً في القرآن، وسنستدل على ذلك بمثال آخر؛ قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقوله في سورة المائدة ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾[1] [المائدة: ٥٤] فعُدل عن الفك في آية البقرة إلى الإدغام في آية المائدة.

ففي البقرة طالت قرينة جملة الشرط بأن عطفت عليها جملة أخرى قبل الجواب، قال تعالى:

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧] فناسب طول القرينة طولُ الفعل بالفك.

وفي آية المائدة قصرت القرينة، فلم يعطف على جملة الشرط شيء، قال تعالى:

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية [المائدة: ٥٤]

فجاء الجواب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى﴾ عقب جملة الشرط، فكان المناسب لقصر القرينة العدول إلى إدغام الفعل الذي هو أقصر من فكه.

وجدير بالذكر أن آية المائدة قرئت بالفك كما قرئت بالإدغام، ولم تقرأ آية البقرة إلا بالفك[2]، بيد أن هذا لا يعكر على ما ذكرناه، ولا سيما أن له أدلة أخرى ليس هذا موضع ذكرها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وفي سورة النمل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[3] [النمل: ٧٠] فعبر القرآن أولاً بـ ﴿تَكُ﴾ بنقص النون، وعدل عن ذلك ثانياً إلى التعبير بالفعل ﴿تَكُن﴾ بلانقص.

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٧٤.

(٢) انظر: ابن الجزري، النشر: ٢: ٢٥٥.

(٣) انظر: البرهان: ٢٤٨، والعقد الجميل: ١١٣.

أما التعبير بنقص النون في النحل فمناسب لقصر القرائن، قال تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦ - ١٢٨]

وأما العدول إلى التعبير بالفعل التام في النمل فنوسب به طول القرائن، قال تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الآيات [النمل: ٦٩ - ٧٣]

وتتضح مناسبة ذلك أكثر إذا روعيت وقوف أخرى في آية النحل نصت عليها كتب الوقف، ولم يرمز إليها في نسختي المصحف المعتمدتين، وهي على ﴿ٱصْبِرْ﴾، وعلى ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، وبذلك تكون القرائن أقصر في الآية نفسها، وهي:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]

فالتعبير بـ ﴿تَكُ﴾ هنا أنسب لقصر هذه القرائن، والتعبير بـ ﴿تَكُنْ﴾ في النمل أنسب لطول القرائن، وبالعدول روعي ذلك أتم مراعاة.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة سبأ ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ۚ وهو الرحيم الغفور [٢]﴾ [سبأ: ٢] وفي سورة الحديد ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2] [الحديد: ٤] فالعدول عن التعقيب بـ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إلى التعقيب بـ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

أما تعقيب آية سبأ بما عُقبت به فلتناسب الموازنة مع تعقيب الآية السابقة لها، قال تعالى:

---

(١) انظر: الأنصاري، زكريا، المقصد: ٥٢.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٣٣.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١ - ٢]

وعُدل إلى التعقيب بـ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ لمناسبة مقدار القرائن التي تلته، قال تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٤ - ٥]

فالمقدار يكاد يكون واحداً هنا، لأن مقاطع ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ أحد عشر، وكذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ومقاطع ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ عشرة، وكذلك ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾. فلو عقبت آية الحديد بمثل ما عقبت به مشابهتها آية سبأ لما حصل هذا التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وفي سورة النور ﴿ويضرب الله الأمثال للناس: والله بكل شيء عليم﴾[1] [النور: ٣٥] فعُدل عن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أما آية إبراهيم فليس فيها وقف على ﴿لِلنَّاسِ﴾، وإنما هو موصول بتعقيبها بـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وبالوصل تتضح مناسبة هذا التعقيب، لأنه إذ ذاك يكون قوله ﴿وَيَضْرِبُ﴾ إلى ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ مناسباً في طوله للقرينة التي تقدمته في الآية، قال تعالى:

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]

وأما آية النور فناسب العدول إلى تعقيبها بـ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ طول قوله فيما سبق ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ وقوله بعد ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾، لأن ثمة وقفاً على ﴿يَشَآءُ﴾ و﴿لِلنَّاسِ﴾، قال تعالى:

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]

---

(١) انظر: السابق: ١٠٥.

ولم يكن هذا التناسب ليحصل لو جاء التعقيب هنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كما كان في آية إبراهيم، أي أنه لولا العدول لفات التناسب.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة التناسب في المقدار قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف:٢١] وفي سورة الحج ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾[1] [الحج: ٧] فعُدل عن نقص «آتية» إلى زيادته.

أما النقص فمناسب لقصر القرينة المتأخرة في قوله تعالى:

﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١]

وأما آية الحج فطالت فيها القرينة المتأخرة، فاستدعت مناسبتها في الطول زيادة ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، قال تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]

ولولا هذا العدول لما حصل التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المائدة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] وفي سورة التغابن ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2] [التغابن: ١٢] فعُدل عن زيادة ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ إلى نقصه.

ففي آية المائدة كانت القرينة طويلة، فأطيل الكلام بالزيادة ليناسبها في الطول، قال تعالى:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]

وفي آية التغابن جاءت القرينة كما في المائدة إلا أنه نقص منها ﴿وَٱحْذَرُواْ﴾ فكانت أقصر، فاقتضت مناسبتها في القصر العدول إلى نقص ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾، قال تعالى:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢]

---

(١) انظر: السابق: ١١٦.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢٧٤، والعقد الجميل: ٥٨.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن﴾ الآية [الإسراء: ٩٤] وفي سورة الكهف ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ - وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ -إِلَّآ أَن﴾[1] الآية [الكهف: ٥٥] فعُدل عن نقص ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ إلى زيادته.

ومناسبة ذلك قصر المقترن بآية الإسراء، قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]

فليس ها هنا وقف إلا على الفاصلة، بيد أن ما جاء بعد ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يكاد يعادل ما جاء قبله في عدد المقاطع، فهذه مناسبة واضحة لم تكن لتحصل لولا نقص ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾.

وفي آية الكهف طالت القرينة، قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]

فاستدعت مناسبة طول القرينة هنا - وليس عليها وقف - العدول إلى زيادة ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾، فتساوت القرينتان - أو القسيمان؛ لأنه ليس ثمة وقف - في عدد المقاطع؛ إذ كل واحدة منهما مؤلفة من ستة وعشرين مقطعاً، ولولا هذا العدول لفات التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠] وفي سورة المزمل ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠] فعُدل إلى هذه الزيادة في المزمّل.

ومناسبة ذلك قصر القرينة في آية البقرة وطولها في المزمل، قال تعالى في آية البقرة:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]

فكان النقص هنا مطلوباً لتتناسب القرينتان في القصر.

وطالت القرينة في المزمل بما زيد فيها على آية البقرة، قال تعالى:

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] [المزمل: ٢٠]

---

(١) تقدم في العدول بزوائد ونواقص الفعل.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٩.

فلما زيد هنا ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وكان الوقف على ﴿حُسْنًا﴾ لا على ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كما كان في البقرة، طالت القرينة، فناسب طولها العدول إلى زيادة ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، ولم يكن غير ذلك ليناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سور يونس وهود وفصلت ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩، وهود: ١١٠، وفصلت: ٤٥] وفي سورة الشورى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[1] [الشورى: ١٤] فزيد ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في الشورى عدولاً عن نقصه من مشابهتها.

أما النقص من المشابهات الثلاث فاستدعاه قصر قرائنها، قال تعالى في آية يونس:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩]

فليس ثمة وقف على ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في هذه الآية، وإنما هو موصول بـ ﴿فِيمَا﴾، وقوله ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قصير. على أنه إذا لم يعد هذا قرينة، فإن القرينة المتقدمة على ما ذكرناه قصيرة؛ وهي ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ الآية [يونس: ١٩]

وقال سبحانه في آية هود:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]

وكذلك القرينة في آية فصلت، قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]

وأما آية الشورى فجاءت القرينة فيها طويلة، فاستدعت مناسبتها في الطول العدول إلى زيادة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]

ولولا هذا العدول لاختل التناسب كما هو واضح.

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٢٠، والبرهان: ٣٢٨، وملاك التأويل: ٢: ٨٤٤، والعقد الجميل: ٩٢ - ٩٣.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وفي سورة الأنفال ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾[1] [الأنفال: ١٠] فعُدل عن زيادة ﴿لَكُمْ﴾ إلى نقصه.

أما الزيادة في آل عمران فواقعة موقعها، لأنه بها تناسب المشابه وما اقترن به في الطول، قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وأما آية الأنفال فجاءت القرينة فيها قصيرة، فكان المناسب لذلك أن يُعدل إلى نقص ﴿لَكُمْ﴾، قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]

فثمة وقف هنا على لفظ ﴿ٱللَّهُ﴾، وهو موصول في آل عمران، مما جعل القرينة هنا أقصر، فناسبها العدول إلى النقص، كما كانت المناسبة متحققة بالزيادة في آل عمران.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠] وفي سورة الحج ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[2] [الحج: ٥] فعُدل عن نقص ﴿مِّن﴾ إلى زيادته في الحج. وقد سبق إبداء أكثر من وجه مناسب لذلك؛ في مراعاة العدول للمشاكلة اللفظية، وفي مراعاته للمناسبة المعنوية. وهذا موضع إبداء وجه آخر لذلك العدول؛ يتعلق بالتناسب في المقدار.

أما ما في النحل فاكتنفته قرينتان قصيرتان، فكان نقص ﴿مِّن﴾ منه مطلوباً ليتناسب وقرينتيه في القصر، قال تعالى:

---

(١) تقدم في العدول بزوائد ونواقص حروف الجر.

(٢) تقدم في العدول بزوائد ونواقص حروف الجر.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠]

وكذلك جاءت الآية التي بعدها مقسمة ثلاثة أقسام بحسب الوقف، قصير فمتوسط فقصير، قال تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]

فتأكدت مناسبة نقص ﴿مِّن﴾ من هذين المنظورين.

وأما المشابه في سورة الحج فجاء مكتنفاً بقرائن طويلة، فاقتضت مناسبته لها في الطول تطويله بالعدول إلى زيادة ﴿مِّن﴾، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في آيتين من سورة الزمر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ [الزمر: ٧١ و ٧٣] وفي سورة فصلت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾[1] [فصلت: ٢٠] فعُدل عن نقص ﴿مَآ﴾ إلى زيادته.

أما ما في الزمر فمقترن بجملة قصيرة؛ وهي ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ في الآيتين، قال تعالى في الأولى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]

وقال في الثانية:

(١) تقدم في العدول بزوائد ونواقص حروف التأكيد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]

وليس ثمة وقف على ﴿جَآءُوهَا﴾ في الآيتين، وإنما هو تقسيم توضيحي، فلما كانت القرينة التي هي جملة الجواب قصيرة، كان الأنسب أن تأتي جملة الشرط كذلك، فجاء نقص ﴿مَآ﴾ منها مناسباً أتم مناسبة.

وأما ما في فصلت فطالت قرينته التي هي جملة الجواب، قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]

فلما طالت هذه القرينة، كان الأنسب أن تأتي جملة الشرط طويلة، فروعي ذلك بالعدول إلى زيادة ﴿مَآ﴾.

وصفوة القول فيما تقدم أن القرآن الكريم يعدل عن التشابه مراعاة لصور متنوعة من التناسب الصوتي، فتارة يكون عدوله مراعاة للمشاكلة الصوتية؛ مشاكلة الصوت للصوت، ومشاكلة الصوت للمعنى، وتارة يكون مراعاة لتجنب ثقل المجاورة الصوتية، وثالثة يكون مراعاة لتناسب الموازنة، وأخرى مراعاة للتناسب في المقدار، وقد تُراعى به أكثر من صورة في المثال الواحد، بل ربما روعيت فيه كلها. ومهما يكن من أمر، فإن كل مثال مما سبق يبين أن العدول عن التشابه قُصد به تحقيق التناسب الصوتي من وجه ما، ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأنسب له في حس السمع وذوق اللسان، مما يعني أنه لولا العدول لاختل التناسب.

ثالثاً: العدول عن التشابه لتناسب الفواصل:

الفاصلة هي «كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر»[1] فهي ملتزمة في آياته كلها.

وهي «ظاهرة أسلوبية قرآنية واضحة المعالم، بها انفرد القرآن [عن] النثر والشعر معاً، وهي من أبرز الخصائص التي جعلته نحواً جديداً من أنحاء البيان، وطريقاً فريداً من طرق التعبير»[2].

---

(١) الحسناوي، محمد، الفاصلة في القرآن: ٢٦، وانظر أيضاً: الزركشي، البرهان: ١: ٥٣. وقد نُقل في تعريفها خلاف؛ المختار منه والأصح ما ذكرناه، وهو اختيار صاحبي الكتابين المذكورين. وانظر الخلاف فيهما.

(٢) أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٣٥١، وفي الأصل من ، وصوابه ما ذكرنا.

ولها شأن كبير في بلاغة النظم القرآني وحلاوة إيقاعه، لأنها تؤدي وظيفة مزدوجة في نظم الآية؛ فهي من ناحية تتصل بالمعنى وتتممه، ومن ناحية أخرى تتصل بنظام الفواصل التي اكتنفتها وتنسقه، ولذلك حافظ القرآن عليها، واختارها بعناية، فمكّن لها في موضعها، وأقرها في نسقها[1].

وفواصل القرآن كلها متناسبة، بل إن تناسبها هو أبرز عناصر التناسب الإيقاعي في النظم القرآني، وأشدها وضوحاً[2]. وقد نبه القدماء على ذلك التناسب، وأبرزوا أهميته في أنه قد يُخالَف الأصل في التراكيب أو في الكلمات المفردة مراعاة له؛ فقد نُقل عن شمس الدين بن الصائغ [ت ٧٧٦ هـ] أنه قال في كتابه الذي سماه «إحكام الراي في أحكام الآي»[3] قال: «اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية، يُرتكب لها أمور من مخالفة الأصول»[4] وقال أيضاً: «وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة، فعثرت منها على نيّف [على] الأربعين حكماً»[5] كتقديم المعمول على العامل؛ نحو ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، وكزيادة حرف المد في قوله تعالى ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، و﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وكصرف ما لا ينصرف في قوله تعالى ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾[6] [الإنسان: ١٥ - ١٦].

وقال الزركشي: «واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جداً، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً، ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع»[7].

---

(١) انظر: السابق: ٣٥٢.
(٢) انظر: السابق: ٣٤٩.
(٣) انظر: السيوطي، الإتقان: ٢: ٩٤٦.
(٤) السابق، والصفحة نفسها.
(٥) السابق، والصفحة نفسها، ووقع في الأصل عن ، وصوابه ما ذكرنا.
(٦) انظر: السابق: ٢: ٩٤٦ - ٩٤٧، وذكر محقق الكتاب في الحاشية ٢ من الصفحة ٩٤٧ تعليقاً على قواريراً : أن التنوين - أي الصرف - قراءة متواترة.
(٧) الزركشي، البرهان: ١: ٦٠.

وعلى تناسب الفواصل اعتمد العلماء في عد الآيات وضبط فواصلها فيما لم يرد فيه نص، فأجمعوا على سبيل المثال على ترك عد ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ [النساء: ١٣٣] من قوله ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣] أجمعوا على ترك عده فاصلة مع أنه محتمل لذلك؛ لأنه محل وقف جائز، ولأنه منته بما انتهت به معظم فواصل القرآن: النون المسبوقة بواو أو ياء، فأجمعوا على ترك عده فاصلة لعدم مناسبته فواصل الآيات التي اكتنفته؛ إذ هي ﴿وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢] و﴿بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] ونحو ذلك مما هو أنسب لـ ﴿قَدِيرًا﴾. وثمة مواضع أخرى أجمعوا على ترك عدها فواصل لعدم المناسبة[(١)].

وبتناسب الفواصل رجح مذهب الشافعي في أن قوله تعالى ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] كله آية، رجح على مذهب أبي حنيفة في أن ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، و﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية، لأن فاصلة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لا تشابه فاصلة الآيات المتقدمة ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، و﴿نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وما تقدم سوى ذلك، ورعاية التشابه في الفواصل لازمة[(٢)].

والحاصل أن مراعاة التناسب في فواصل القرآن لازمة ومتأكدة، ولهذا يعدل القرآن عن التشابه، فيضع فاصلة كل من المتشابهين في نسقها الأنسب لها. بل إن تلك المراعاة آكد ما تكون في هذا التشابه، ولذلك كان أقوى ما استدل به القائلون بأن القرآن يراعي الفواصل كما يراعي بلغاء العرب السجع هو من المتشابه اللفظ[(٣)].

وسنتتبع ذلك في صورتين، نتناول في الأولى مراعاة العدول لتناسب الفواصل في الروي؛ أي في الحرف الأخير من كلمة الفاصلة، والثانية في ما قبل الروي؛ لأن فواصل

---

(١) انظر: السابق: ١: ٩٩ وما بعدها، والسيوطي، الإتقان: ٢: ٩٤١ - ٩٤٢، وأبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) انظر: ابن أبي مريم، الكتاب الموضَح في وجوه القراءات وعللها: ١: ٢٢٦، والزركشي، البرهان: ١: ٧٥.

(٣) انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن: ١١٠ وما بعدها، وقارن بما قاله البقاعي في نظم الدرر: ١٢: ٣١٠.

القرآن إما أن تتناسب في الحرف الأخير أو في ما قبله، أو فيهما معاً؛ وهو كثير[1]، بيد أن هذه الصورة الثالثة مقسمة على الأُوليين، ولذلك سنكتفي بهما.

أ - العدول عن التشابه لتناسب الفواصل في الروي :

تناسب الفواصل في الروي إما أن يكون تناسب مماثلة، وإما أن يكون تناسب مقاربة؛ لأن فواصل القرآن كما ذكروا تنحصر في قسمين؛ قسم تتماثل حروفه في المقاطع، وآخر تتقارب حروفه ولا تتماثل[2]. والمقصود بالحروف في المقاطع الحرف الأخير من كلمات الفاصلة كما تدل أمثلتهم[3]، أو الحرف الأخير وما قبله كما يدل عليه كلام بعضهم[4].

وسنتناول هنا مراعاة العدول لتناسب الفواصل في الحرف الأخير فقط كما ذكرنا قريباً، من غير تمييز بين تناسب المماثلة والمقاربة، لأنهما يتداخلان ويصعب الفصل بينهما في مواضع كثيرة.

أ - العدول بالمبدلات :

ومن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة تناسب الفواصل في حرف الروي قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وفي سورة سبأ ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5] [سبأ: ١١] فعُدل عن وصفه سبحانه بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ إلى ﴿بَصِيرٌ﴾.

---

(١) جدير بالذكر أن ثمة فواصل منفردة؛ وهي التي لا تُناسب بين حروفها وحروف الفواصل التي اكتنفتها أو جاءت قبلها أو بعدها، وهي نادرة لا تتجاوز في القرآن كله ثلاثاً وعشرين فاصلة كما ذكر صاحب الفاصلة في القرآن: ١٧٣ في الحاشية ٢ ، وفي: ٣٥٢، ومن أمثلتها قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح ١ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ٢ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ٣ النصر: ١ - ٣ فانفردت فاصلة الآية الأولى الفتح عما تلاها، إلا أنها لم تخل من تناسب الموازنة، فهي و نصر بوزن واحد. وكذلك كل فاصلة منفردة لابد لها من مناسبة صوتية أو لفظية فضلاً عن المعنوية. وانظر ما ذكره صاحب الفاصلة في القرآن من مسوغات انفراد الفاصلة في: ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) انظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن؛ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٩٨، والزركشي، البرهان: ١: ٧٢ حتى ٧.

(٣) انظر: المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة، والصفحات نفسها.

(٤) انظر: ابن أبي مريم، الكتاب الموضَح: ١: ٢٢٦.

(٥) انظر: البرهان: ٢٧٦.

قال الكرماني: «خص كل سورة بما وافق فواصل الآي [فيهما]»[1] وذلك لأن الفواصل المكتنفة لآية المؤمنين منتهية بالنون؛ وهو حرف مقارب للميم؛ من حيث كان في كليهما غنة، وكانا مجهورين، ولذلك أبدلوا أحدهما من الآخر في مثل: غَيْم وغين[2].

فبهذا الوجه من التقارب حصل التناسب بين ﴿عَلِيمٌ﴾ وما اكتنفه من فواصل، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

.....وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

..... وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

..... كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٤٩-٥٢]

وأما العدول إلى التعبير بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ في آية سبأ فنوسب به فاصلة الآيتين اللتين بعدها، لأن رويها الراء، قال تعالى:

﴿ ..... وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

.....وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

.... ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١١ - ١٣]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي الحجر والذاريات ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥، والذاريات: ١٥] وفي سورة الطور ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧] وفي سورة القمر ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾[3] [القمر: ٥٤] فعُدل عن ﴿وَعُيُونٍ﴾ إلى ﴿وَنَعِيمٍ﴾ ثم إلى ﴿وَنَهَرٍ﴾.

ووجه ذلك مناسبة كل فاصلة من تلك لفواصل الآيات التي تلتها في حرف الروي؛ ففي الحجر قوله تعالى:

---

(١) السابق، والصفحة نفسها، ووقع في الأصل فيهما بالتثنية.

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ٩١.

(٣) انظر: العقد الجميل: ١٠٦ - ١٠٧.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾
ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾
لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٨]

وفي الذاريات قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾
ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾
كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨]

وعُدل إلى ﴿وَنَعِيمٍ﴾ في الطور لمناسبة فاصلة الآية التالية، لأن رويها الميم، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾
فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۖ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ [الطور: ١٧ - ١٨]

ثم عُدل في القمر إلى ﴿وَنَهَرٍ﴾ لمناسبة فاصلة الآية التالية؛ لأن رويها الراء، ولمناسبة فواصل السورة كلها أيضاً؛ لأن الروي في كلها راء، فيكفينا ذكر ما اكتنفها، وهو قوله تعالى:

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾
فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٣ - ٥٥]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة لقمان ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠] وفي سورة ق ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[1] [ق: ٧] فالعدول عن ﴿كَرِيمٍ﴾ إلى ﴿بَهِيجٍ﴾.

---

(١) انظر: السابق: ١٠٦.

وقد جاء التعبير في لقمان مناسباً لفواصل الآيات التي اكتنفته، لأن رويها الميم أو النون؛ وهما متقاربان كما سبق، وهي:

﴿.....فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧

.....لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨

.....وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩

..... وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠

.....بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾ [لقمان: ٧ - ١١]

وقد تقدمت آيةَ ق آيات؛ روي فواصلها الجيم، فكان العدول إلى ﴿بَهِيجٍ﴾ أنسب لذلك، قال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق: ٥ - ٧]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة ق ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ [ق: ٢٥] وفي سورة القلم ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[1] [القلم: ١٢] فالعدول عن ﴿مُّرِيبٍ﴾ إلى ﴿أَثِيمٍ﴾.

وقد جاء التعبير في ق مناسباً للفواصل التي اكتنفته؛ لأن رويها الدال؛ وهومقارب للباء، لاشتراكهما في الجهر والشدة والقلقلة[2]، ومن هذه الفواصل:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝٢٣

أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤

مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥

ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦

قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧﴾ [ق: ٢٣ - ٢٧]

---

(١) انظر: السابق: ١٤٠.

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ٥٤.

أما آية القلم فاكتنفها آيات؛ روي فواصلها النون أو الميم، بل كل ما في السورة كذلك؛ وهما متقاربان كما سبق، فكان المناسب لذلك العدول إلى ﴿أَثِيمٍ﴾، قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾
هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾
لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾
عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾
أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ الآيات [القلم: ١٠ - ١٤]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧] وفي سورتي النحل والقلم نحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥، والقلم: ٧] وفي سورة النجم التي هي متقدمة على القلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[1] [النجم: ٣٠] والحاصل أنه عُدل عن ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى ﴿بمن اهتدى﴾ في النجم.

ووجه ذلك استدعاء التناسب في الروي بين الفاصلة في كل من هذه المتشابهات وبين فواصل الآيات التي اكتنفتها، قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿... . . . .إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾
فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
.....إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ الآيات [الأنعام:١١٦-١١٩]

وقال سبحانه في سورة النحل:

﴿ ..... وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾
..... وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

(١) انظر: العقد الجميل: ٧١.

..... وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

..... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

..... وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

..... وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٢-١٢٨]

وقال سبحانه في سورة القلم :

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾

بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾

وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [القلم: ٥ - ١٠]

فجاء التعبير في هذه المتشابهات بـ ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ مناسباً لروي الفواصل التي اكتنفتها كما هو واضح.

أما العدول إلى ﴿بمن اهتدى﴾ في سورة النجم فاستدعته مناسبة روي الفواصل فيها، لأن معظم فواصل السورة منتهية بألف، فمما اكتنف آية العدول الآيات:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾

..... وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾

.....إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

.....وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾

..... هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٢٨-٣٢]

ومن البين أنه لولا العدول لما تحقق التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] وفي سورة لقمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] وفي سورة

الحديد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾[1][الحديد: ٢٣] فعُدل عن التعبير بـ ﴿مَن كَانَ﴾ إلى التعبير بـ ﴿كُلُّ﴾ في لقمان والحديد.

ووجه ذلك مناسبة روي الفواصل في كل من تلك السور؛ لأنه تقدم آية النساء آيتان فاصلتهما راء منصوبة، فروعيت مناسبتها بالتعبير بـ ﴿مَن كَانَ﴾ لينتصب ﴿فَخُورًا﴾، والآيات:

﴿.....إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾..... إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ .. ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٤ - ٣٦]

ثم إن معظم فواصل سورة النساء تنتهي بتنوين النصب، وهو ينقلب ألفاً في الوقف المراعى في الفواصل، وبذلك يكون التناسب من وجهي الراء المفتوحة، وتنوين النصب المنقلب ألفاً.

أما العدول إلى التعبير بـ ﴿كُلُّ﴾ في لقمان فلينجر ﴿فَخُورٌ﴾ ويناسب برائه غير المحركة في الوقف روي الفواصل التي اكتنفته، والتي هي راء غير محركة في الوقف أيضاً، والآيات:

﴿. . . . . إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

. . . . . إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾

..... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

.... إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ الآيات [لقمان: ١٦ - ١٩]

وكذلك العدول في سورة الحديد هو لمناسبة روي فاصلة الآية المتقدمة:

﴿ .....إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾

... ... وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]

فالمناسبة بينة في المتشابهات الثلاث، والعدول حاصل في التركيب لا في كلمة الفاصلة كما في الأمثلة المتقدمة، ومن الواضح أنه لولا هذا العدول لما تحقق التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٩] وفي سورة الفتح ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(١) انظر: درة التنزيل: ٥٣، وملاك التأول: ١: ١٣٢، وكشف المعاني: ١٢٠، والعقد الجميل: ٥٠.

مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] [الفتح: ٢٩] فعُدل عن الجر باللام في ﴿لَهُمْ﴾ إلى الجر بـ من في ﴿مِّنْهُمْ﴾.

والتعبير باللام يؤدي إلى ارتفاع ﴿عَظِيمٌ﴾، وبمن يؤدي إلى انتصابه، والمستدعي للارتفاع والانتصاب المناسبة في روي الفواصل في السورتين، قال الكرماني: «رفع ما في هذه السورة موافقة لفواصل الآي، ونصب ما في الفتح موافقة للفواصل أيضاً»[2] لأن فواصل الآيات المكتنفة لآية المائدة رويها نون أو ميم - وهما متقاربان - وهي:

﴿. . . . . إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٢﴾
. . . . . وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ٨ - ١١]

وفواصل سورة الفتح كلها منتهية بتنوين نصب ينقلب ألفاً في الوقف، فكان المناسب هنا أن يُعدل إلى التعبير بـ ﴿مِّنْهُم﴾ لينتصب ﴿عَظِيمًا﴾ فيكون على شاكلة فواصل السورة، فمن الفواصل القريبة من الآية:

﴿. . . . . وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾
. . . . . فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾
. . . . . وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾
... وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٦-٢٩]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي التوبة والصف ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣، والصف: ٩] وفي سورة الفتح المتقدمة على الصف ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى

(١) انظر: درة التنزيل: ٨٩، والبرهان: ١٦٠، وملاك التأويل: ١: ٢٣٩، وكشف المعاني: ١٤٥ - ١٤٦.
(٢) البرهان: ١٦٠.

ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] فعُدل عن التعقيب بـ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ إلى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب الموازنة الإفرادية، وثمة وجه صوتي آخر يتعلق بتناسب الفواصل في حرف الروي؛ هذا موضعه.

أما ما في التوبة والصف فمناسب لروي الفواصل التي تقدمته؛ وهو نون، وآيات التوبة هي:

﴿... حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

..... أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

..... إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

..... وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٢٩ - ٣٣]

وآيات الصف هي:

﴿ ..... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

..... قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

..... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾

..... وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٥ - ٩]

وأما آية الفتح فتقدمتها آية روي فاصلتها الباء المفتوحة، والباء أنسب للدال من النون، لقرب الباء من الدال كما تقدم في مثال سابق، فكان الأنسب هنا مراعاة هذا التقارب، ولذلك عُدل إلى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، قال تعالى:

﴿... فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٧ - ٢٨]

ثم إن فواصل سورة الفتح كلها منتهية بألف منقلبة عن تنوين النصب، و﴿شَهِيدًا﴾ أنسب لذلك من فاصلة سورتي التوبة والصف ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وبهذا يكون المقتضي للعدول وجهين من تناسب الفواصل، يؤكد أحدهما الآخر، تناسب يعم فواصل السورة كلها، وتناسب يخص فاصلة الآية المتقدمة.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٣] وفي سورة فصلت ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] فعُدل عن التعقيب بـ ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ إلى التعقيب بـ ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب الموازنة الإفرادية، وثمة وجه آخر يتعلق بتناسب الفواصل في الروي؛ هذا موضع بيانه.

أما تعقيب آية الإسراء بما عقبت به فواقع موقعه الأنسب له؛ لأن فواصل السورة كلها منتهية بألف منقلبة عن تنوين النصب إلا فاصلة واحدة في أول السورة، فمما اكتنف الآية قوله تعالى:

﴿. . . . . إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

. . . . . وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

. . . . . فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ الآيات [الإسراء: ٨١-٨٤]

وأما العدول في آية فصلت فنوسب به روي فاصلة الآية التي تقدمتها؛ وهو الظاء، لأن بين الضاد والظاء تقارباً شديداً في النطق القديم، مما جعل وقعهما في الآذان متشابهاً آنئذ كما ذكر بعض دارسي الأصوات المحدثين؛ واستأنس بتناسب الروي في الفاصلتين[1]، قال تعالى:

﴿ ... وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت: ٥٠-٥١]

ونختم أمثلة عدول المبدلات بمثال يبين أن مراعاة العدول لتناسب الفواصل شيء مؤكد بسبب إيثار العدول مع أن المعنى واحد في المتشابهات؛ وهو قوله تعالى في سورة يونس ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] وفي سورة الإسراء ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وفي سورة النمل ﴿فَمَنِ

(١) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٥٥.

ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[1] [النمل: ٩٢] فعُدل عن تعقيب آية يونس بـ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ إلى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ في الإسراء، ثم إلى ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ في النمل.

وقد نبه الخطيب الإسكافي على أن المعنى واحد، وأنه عُدل عن التشابه مراعاة لتناسب الفواصل، فقال مبتدئاً بآية يونس: «أما الآية الأولى فإنه لما قال فيها ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ [يونس: ١٠٨] أي منفعة اهتدائه له، وهي دوام النعمة والخلود في الجنة، واقتضى هذا في الضلال ضده فقال: ومن ضل فإنما ضرر ضلاله عليه، وهو دوام العقاب بأليم العذاب ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨] وما يلزمني أن أقيكم ما لا تقونه أنفسكم كالوكيل الذي يلزمه حفظ وكل به مما يضره. وأما الآية التي في آخر سورة النمل فإنها عدل بها عند ذكر الضلال عما حُملت عليه في الآية التي في آخر سورة يونس لتحمل على الفواصل التي قبلها، وهي مختومة بالواو والنون أو الياء والنون، فقال تعالى ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] أي ممن يعلمكم ما يلزمكم أن تحذروه، ويخوفكم ما يجب عليكم أن تجتنبوه، فاشتمل هذا على معنى ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨] لأن في قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ تخويفاً وإنذاراً، وفيه إذا قال: إنما أنا ممن ينذر؛ أي لست ممن يكره على ما يحميكم من النار ويقيكم حر العقاب كالوكيل الذي يحامي على ما وُكل به أن يناله ضرر، مثل ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨] فجاء على لفظ ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] لتكون الفاصلة مشاكلة للفواصل التي قبلها مع تأدية مثل المعنى الذي أدته الآية التي شابهتها»[2].

ولم يتعرض الخطيب الإسكافي لآية الإسراء، والكلام عليها كالكلام على مشابهتيها، لأن قوله فيها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ هو بلفظه في آية يونس، وقد قال الخطيب فيه: إن فيه تخويفاً وإنذاراً. ثم قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] هو بمعنى ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨] وبمعنى ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] لأن حاصله أنه لا يحمل إنسان ذنب آخر، وأن بعث الرسول إنما هو للإنذار بالعذاب.

---

(١) انظر: درة التنزيل: ٢١٥ - ٢١٦، وملاك التأويل: ١: ٥٠٦، والعقد الجميل: ٩٦.

(٢) درة التنزيل: ٢١٦، وما وضعناه بين قوسين إنما هو في الأصل فإنما ، وصوابه بلا فاء كما أثبتنا.

فالمعنى في المتشابهات الثلاث واحد، وإنما عُدل عن التشابه مراعاة لتناسب الفواصل كما ذكر الخطيب الإسكافي، فآية يونس جاءت بين آيتين فاصلة المتقدمة مختومة بالميم، وفاصلة المتأخرة مختومة بالنون، وبين الميم واللام والنون تقارب فهي «أكثر الأصوات الساكنة وضوحاً، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين»[1] وإن كان التقارب بين اللام والنون أشد منه بين اللام والميم لتقارب مخرج اللام والنون[2]. والحاصل أنه بالتقارب بين تلك الثلاث كان التناسب متحققاً في تعقيب الآية بما عقبت به، قال تعالى:

﴿ . . . . . وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

. . فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

. . وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٧ - ١٠٩]

وأما العدول في آية الإسراء فجاء مناسباً لمعظم فواصل السورة؛ لأنها مختومة بألف منقلبة عن تنوين النصب، فمما اكتنف الآية قوله تعالى:

﴿ ... وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

.... فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٦]

وأما العدول إلى تعقيب آية النمل بما عقبت به فاستدعته مناسبة روي الفواصل التي اكتنفته؛ وهو النون، فمن ذلك المكتنف قوله تعالى:

﴿ . . . . . هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

---

(١) أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٢٧.

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ٧٨.

. . . . . وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

. . . . فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾

. . . . . وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩٠-٩٣]

فلما كان الروي المكتنف للآية هنا نوناً لا لاماً ونوناً كما في يونس، كان العدول هنا إلى تعقيب مختوم بنون أنسب، ولو عقبت الآية هنا بما عقبت به آية يونس لحصل التناسب، ولكن الآكد في المناسبة والأمكن في هذا الموضع هو النون، ولذلك كان العدول مطلوباً.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة تناسب الفواصل في الروي قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢] وفي سورة الأحزاب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾[(١)] [الأحزاب: ٥١] فعُدل إلى زيادة ﴿كَانَ﴾.

أما نقص ﴿كَانَ﴾ من آية النساء فليرتفع ﴿حَلِيمٌ﴾ ولتناسب ميمه المرفوعة أو الساكنة في الوقف ختم الفاصلتين اللتين بعده بالميم والنون المرفوعتين أو الساكنتين في الوقف أيضاً، قال تعالى:

﴿.... وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

.. وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

. . . وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٢ - ١٤]

وأما العدول إلى زيادة ﴿كَانَ﴾ في آية الأحزاب فلينتصب ﴿حَلِيمًا﴾ ويناسب بنصبه الفواصل التي اكتنفته؛ لأن رويها الميم أو الباء المنصوبة - وهما متقاربان لكونهما من مخرج واحد[(٢)] - قال تعالى:

﴿. . . . وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

---

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٧٢ - ٧٣، والبرهان: ١٥٣ وقارن بـ ٣٠٧، ووقع في متنه حكيماً سهواً، لأن المحقق ذكر في حاشيته حليماً .

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ٣٧ و٤١، وانظر في تقاربهما أيضاً: ٩١.

. . . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

. . . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

. . . إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

. . . . فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب: ٥٠ - ٥٤]

ثم إن ختم هذه الفواصل بالألف المنقلبة عن تنوين النصب في الوقف يستدعي العدول إلى زيادة ﴿كَانَ﴾ ليختم ﴿حَلِيمًا﴾ بالألف، ويناسب تلك الفواصل التي اكتنفته، ولعل هذا ما أراده الكرماني بأن دخول كان هنا لمراعاة فواصل الآي[1].

وقريب من المثال السابق قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وفي سورة الشورى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[2] [الشورى: ١٧] فعُدل عن زيادة ﴿تَكُونَ﴾ إلى نقصه.

ذكر الكرماني أن الزيادة في الأحزاب لمراعاة الفواصل[3]، وذلك لأن معظم فواصل السورة منتهية بألف منقلبة عن تنوين النصب، أو ألف ناشئة عن إشباع حركة الفتح، فزيد ﴿تَكُونَ﴾ لينتصب ﴿قَرِيبًا﴾ ويناسب بألفه المنقلبة عن تنوين النصب تلك الفواصل التي اكتنفته، قال تعالى:

﴿. . . . . وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

. . . . . تَسْلِيمًا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴿٦٣﴾

. . . . . إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾

. . . . . لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾

. . . . . يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾

وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢ - ٦٧].

---

(١) انظر: البرهان: ٣٠٧.

(٢) انظر: السابق: ٣٣٠.

(٣) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

أما آية الشورى فاكتنفتها آيتان؛ روي فاصلتهما الدال، وهو قريب من الباء كما تقدم في مثال سابق، وقد جاء مرفوعاً مرة ومجروراً أخرى، فاستدعى هذا العدول إلى نقص ﴿تَكُونَ﴾ ليرتفع ﴿قَرِيبٌ﴾ ويكون الوقف على الفواصل الثلاثة بصوت متقارب؛ وهو الباء المقلقلة لسكونها والدال المقلقلة لذلك أيضاً، قال تعالى:

﴿. . . . . وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

. . . . . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾

. . أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشورى: ١٦ - ١٨]

فالعدول هنا كما في المثال السابق حاصل في التركيب لا في لفظ الفاصلة، ولولاه لم يتحقق التناسب، مما يدل على أنه مقصود لذلك.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وفي سورة ق ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] فعُدل إلى زيادة ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول للمشاكلة اللفظية، وفي مراعاته لتناسب الموازنة الإفرادية، وثمة وجه آخر يتعلق بتناسب الفواصل في الروي؛ هذا موضعه.

أما آية الشعراء فاكتنفتها آيات؛ روي فواصلها الميم أو النون، فكان نقص ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مطلوباً هنا ليقع ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ فاصلة ويناسب رويها ما اكتنفه، فمن ذلك المكتنف قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾

إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾

وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ الآيات [الشعراء: ٨٨ - ٩٢]

وأما آية ق فتقدمها آيات؛ روي فواصلها دال، فاستدعت مناسبتها العدول إلى زيادة ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ليكون فاصلةً رويها دال، قال تعالى:

﴿. . . . . فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾

. . . . . وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾

. . . . . وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾

. . . . . وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

. . . . . وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

. . . . . وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٢٦ - ٣١]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحج ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وفي سورة الزخرف ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] فعُدل عن نقص «مبين» إلى زيادته. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب المطلع والختام. وثمة مناسبة صوتية تتعلق بروي الفواصل؛ هذا موضع بيانها.

أما آية الحج فتقدمها أربع آيات روي فواصلها الراء، ولكنها مفصولة عنها بآيتين روي فاصلتهما دال وميم، وتأخر عنها أيضاً ثلاث آيات روي فواصلها الراء، ولكنها مفصولة عنها بثلاث آيات روي فواصلها الميم أو النون، والحاصل أنها مكتَنفة اكتنافاً غير مباشر بعدة آيات روي فواصلها الراء؛ فكان نقص «مبين» منها أنسب ليكون روي فاصلتها الراء، والآيات هي:

﴿. . . . . إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

. . . . . وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾

. . . . . وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

. . . . . إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾

ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

. . . . . رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

. . . . . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

. . . . . مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

. . . . . بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾

. . . . . تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

. . . . . إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

. . . . . ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ﴿٧١﴾

وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٦٠ - ٧٢]

وأما آية الزخرف فاكتنفها آيات روي فواصلها نون أو ميم، فكان الأنسب هنا العدول إلى زيادة ﴿مبين﴾ ليكون روي الفاصلة نوناً، ومن ذلك المكتنف قوله تعالى:

﴿. . . . . وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾

. . . . . وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

. . . . . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

.... أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ الآيات [الزخرف: ١٣ - ١٦]

ثم إن ما يؤكد مناسبة العدول إلى تلك الزيادة هنا أن سورة الزخرف فواصلها كلها مختومة بميم أو نون إلا فاصلة واحدة فبلام.

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لمراعاة ذلك التناسب قوله تعالى في سورتي يونس والأحقاف ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧، والأحقاف: ٨] وفي سورة سبأ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[1] [سبأ: ٢] فتقدم ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في يونس والأحقاف، وكذلك كل ما في القرآن من ذكر «غفور» مع «رحيم» - وهو في أكثر من خمسين آية[2] - هو بتقديم صفة الغفران، ولم يُعدل عن ذلك إلا في سبأ.

أما آية يونس فتأخر فيها لفظ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ - وهو فاصلتها - ليكون الروي ميماً، فيناسب فواصل الآيات التي تقدمت الآية؛ لأن رويها النون، والنون والميم متقاربان، فمن تلك الآيات:

﴿. . . . وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

. . . . . وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

. . . فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

---

(١) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٩٩.

(٢) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٥٠١ - ٥٠٢.

...وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

[يونس: ١٠٤ - ١٠٧]

وأما آية الأحقاف فاكتنفها آيات روي فواصلها النون، فجاء تأخير لفظ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فيها مناسباً لذلك؛ لتقارب الميم والنون، فمن ذلك المكتنف قوله تعالى:

﴿. . . . . وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

. . . . . قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

. . . . . كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

. . . . . وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

. . . . . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ الآيات [الأحقاف: ٦ - ١٠]

وأما العدول إلى تأخير ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ في آية سبأ فليقع فاصلة ولينناسب برائه روي فاصلة الآية المتقدمة؛ وهو الراء، قال تعالى:

﴿. . . . وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

. . . . . وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: ١ - ٢]

ولولا العدول لما تحقق التناسب كما هو واضح، ومما يزيد ذلك تأكيداً أن المطرد في القرآن تقديم «غفور» على «رحيم» وهو كثير، ولم يُعدل عنه إلا في آية سبأ كما ذكرنا سابقاً.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في كل آية ذُكر فيها خلْق السموات والأرض ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولم يُعدل عن ذلك إلا في سورة طه في قوله ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1] [طه: ٤].

ذكر ابن جماعة أن ذلك لموافقة رؤوس الآي[2]، أي لمناسبة فواصل السورة؛ لأن معظم فواصلها منتهٍ بألف، فأخر ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ليوصف بكلمة الفاصلة ﴿ٱلْعُلَى﴾ المنتهية بألف، قال تعالى:

﴿طه ﴿١﴾

مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾

---

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٥٠، وتقديم السموات على الأرض وارد في أربع وعشرين آية في القرآن كله، انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٣٦٤ وما بعدها.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٢٥١.

إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣
تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤
ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ الآيات [طه: ١ - ٥]

وثمة مناسبة معنوية لذلك التأخير قرنها ابن جماعة بالتناسب في الفواصل، يستحسن ذكرها هنا لأنها تدل على أن مراعاة العدول لتناسب الفواصل لا تنفصل عن مراعاته للتناسب في المعنى، قال ابن جماعة: «لما ذكر أن إنزال القرآن تذكرة لمن يخشى - وهم سكان الأرض - ناسب ذلك البداءة بالأرض التي أنزل القرآن تذكرة لأهلها»[(١)].

ب - العدول عن التشابه لتناسب الفواصل فيما قبل الروي :

والمقصود بما قبل الروي ما يسمى عند أهل العروض بالردف والتأسيس والدخيل[(٢)] ونحو ذلك، فإن للأحرف الملقبة بهذه الألقاب شأناً كبيراً في تناسب الفواصل، بل ربما فاق الروي في الأهمية، وقد نبه على ذلك بعض المعاصرين، فقال: «أوَ علينا جناح في أن نزعم أن حروف ما قبل الروي سواء اعتبرت رديفة أو دخيلة أو توجيهاً ربما كانت عند تحليلنا لحركة الإيقاع أهم من حرف الروي ذاته ؟»[(٣)].

وقال أيضاً: «أمر آخر أريد أن أجازف به؛ هو أن حرف الروي أو الحرف الذي علينا أن نتبين فيه لون الإيقاع بكلمة أدق ليس هو النون أو الميم؛ وهما حرفان سهلا المخرج قريباه فيهما غنة محببة، بل الياء والواو اللذان أتيا قبل الروي، فدور هذين الحرفين لا يقتصر على أن يكونا مجرد ردف للنون والميم وبقية حروف فواصل السورة، ردف يجب الالتزام به والتقيد كما هو الحال في الشعر، لم لا يكونان هما الحرفين اللذين بُني عليهما إيقاع الفاصلة؟ ولم لا يكون ما بعدهما إنما جاء لتلوينهما؟ نحن نرى ذلك، وهو أقرب إلى

---

(١) السابق، والصفحة نفسها.

(٢) الرِّدْف هو حرف مد أو لين قبل الروي. والتأسيس هو ألف يفصلها عن الروي حرف واحد متحرك كالألف في جاهل . والدخيل هو الحرف المتحرك الذي يفصل ألف التأسيس عن الروي كالهاء في جاهل . انظر: فاخوري، محمود، موسيقى الشعر: ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) اليافي، د. نعيم، قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن، مجلة التراث العربي، العددان: ١٥ - ١٦: ١٤٨. والتوجيه هو حركة ما قبل حرف الروي الساكن كفتحة الباء من عَرْبَدْ ، انظر: فاخوري، محمود، موسيقى الشعر: ١٤٧.

القيمة الموسيقية، ولا سيما إذا عرفنا أن لا علاقة بين الميم والراء واللام والنون، في حين أن خصائص حرفي الواو والياء متشابهة أو متقاربة، فكلاهما حرف ضيق، وكلاهما له ذبذبات واحدة [بين ٣١٠ - ٣٢٠ ذ/ ثا لكل منهما] وهو ما يعنينا في دراسة الأصوات«[١].

ويبدو لنا أن ذلك الشأن للردف يرجع جله إلى التناسب في مقدار الياء والواو الصوتي، إذ هو واحد فيهما، وهو ما أشار إليه بتساوي ذبذباتهما، فالردف بالياء أو الواو يؤدي إلى تساوي المقاطع الأخيرة في الفواصل، فكل فاصلة مردوفة تنتهي بمد - أو لين - فحرف موقوف عليه بالسكون؛ وهذا مقدار صوتي واحد؛ به ينضبط الإيقاع، وإليه مرجع جل القيمة الموسيقية لا إلى طبيعة الحرفين وتشابه خصائصهما وإن كان لذلك نصيب ظاهر.

وقد أشار بعض القدماء إلى ذلك التناسب في المقدار في المقاطع الأخيرة؛ كابن أبي مريم [ت بعد ٥٦٥ هـ] الذي ذكر أن مقاطع القرآن إما متشاكلة وإما متقاربة[٢]، ثم قال: «والمتقاربة نحو ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] و﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، فقد تقارب قوله: مجيد وعجيب من جهة أن كل واحد منهما قبل آخره ياء ساكنة قبلها كسرة فهي مدة«[٣].

ومما يؤيد تعليلنا - أي أن جل شأن الردف مرجعه إلى التناسب في المقدار - كثرة الردف في القرآن كثرة بالغة بالقياس إلى قلة التأسيس فيه[٤]؛ لأن مقدار المقطع الأخير في حال الردف بالياء أو الواو واحد، أما في حال التأسيس فهو متقارب بسبب الحرف المتحرك بين التأسيس والروي، ففي الردف يكون التناسب أتم، والإيقاع أحلى، قال ابن جني [ت ٣٩٢ هـ]: «وكلما جاور حرف المد الروي كان آنس به، وأشد إنعاماً لمستمعه«[٥].

والحاصل أن لما قبل الروي من أحرف الفاصلة أهمية كبيرة في تناسب الفواصل، ولا سيما للردف الذي روعي أكثر من الروي. ولم يكن ذلك المعاصر الذي نقلنا عنه أول من جازف - كما عبر - في القول بتلك الأهمية والتنبيه عليها؛ لأن القدماء أدركوها وإن لم

---

(١) السابق، والصفحة نفسها. ويقصد بـ ذ/ ثا: ذبذبة في الثانية.
(٢) انظر: ابن أبي مريم، الكتاب الموضَح في وجوه القراءات وعللها: ١: ٢٢٦ .
(٣) السابق، والصفحة نفسها.
(٤) عدد الفواصل المؤسسة كما أحصاها صاحب الفاصلة في القرآن ٩٠ ، وعدد المردوفة ٥٢٠٣ ، انظر: الفاصلة في القرآن: ٣٥١. وتوجب الأعداد التفصيلية التي ذكرها أن يكون عدد المردوفة ٥٢٠٢ .
(٥) ابن جني، الخصائص: ١: ٢٣٤، ويعني بأشد إنعاماً أكثره رقة صوت.
(٦) انظر: الحسناوي، محمد، الفاصلة في القرآن: ٣٥٦.

يصرحوا بها كما تبين فيما نقلناه عن ابن أبي مريم، بل أدركها من سبقه من أصحاب توجيه المتشابه كالخطيب الإسكافي وغيره، فليس صحيحاً أن القدماء لم ينتبهوا إلى ظاهرة الردف كما ذكر صاحب الفاصلة في القرآن[1]، فقد وجه أصحاب توجيه المتشابه بالردف آيات عديدة كما سيتبين فيما سنمثل به من مراعاة العدول لهذه الصورة من تناسب الفواصل.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة الصافات ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨] وفي سورة ص ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾[2] [ص: ٥٢] فعُدل عن ﴿عِينٌ﴾ إلى ﴿أَتْرَابٌ﴾.

نبه الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرماني - على أن التعبير بـ ﴿عِينٌ﴾ في الصافات لمراعاة فواصل الآيات التي جاءت مردوفة أواخرها بالياء أو الواو، وأن القصد التوفقة بين الألفاظ مع صحة المعاني[3]. فمن الآيات التي اكتنفت الآية :

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾
بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾
لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾
وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾الآيات [الصافات: ٤٥ - ٥٠].

أما العدول إلى التعبير بـ ﴿أَتْرَابٌ﴾ في سورة ص فلأن السورة بُنيت فواصلها على أن تُردف بالألف كما ذكر الخطيب الإسكافي وتابعه الكرماني[4]. والمراد معظم فواصلها لا كلها، والمهم أن ما اكتنف الآية من ذلك كثير، فتأكدت مناسبة العدول، ومن ذلك المكتنف :

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٩٩، والبرهان: ٣٢٠.
(٢) انظر: المصدرين السابقين، والصفحة نفسها فيهما.
(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٩٨ - ٣٩٩، والبرهان: ٣٢٠.

جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾

وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾

إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ الآيات [ص: ٤٩ - ٥٤]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] وفي سورتي الأحزاب والفتح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا﴾[1] [الأحزاب: ٢٧، والفتح: ٢١] فعُدل عن ﴿مُّقۡتَدِرًا﴾ إلى ﴿قَدِيرًا﴾.

أما آية الكهف فنوسب بفاصلتها ما بُنيت عليه أكثر فواصل السورة من وقوع حرف متحرك قبل الروي، وأكثر ما اكتنف الآية كذلك أيضاً، ومنه:

﴿..... لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾

..... وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

..... وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾

..... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾

وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾

..... فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾

..... بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾﴾ الآيات [الكهف: ٤٢ - ٤٨]

وأما العدول إلى ﴿قَدِيرًا﴾ في آيتي الأحزاب والفتح فاستدعته مناسبة الفواصل في كل من السورتين؛ إذ بُنيت فواصل كل منهما على أن تكون مردوفة بياء أو واو، لم تخرج عن ذلك فاصلة واحدة منهما، فمما اكتنف آية الأحزاب من ذلك:

﴿.....وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾

.....فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾

.....وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

.....سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾

.....أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ الآيات [الأحزاب: ٢٥ - ٢٩]

ومما اكتنف آية الفتح :

﴿..... وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

..... وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

..... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

... ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ الآيات [الفتح: ١٩ - ٢٣]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة طه ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ....﴾ الآية [طه: ١٣] وفي سورة ق ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[1] [ق: ٣٩] فعُدل عن التعريف بالإضافة في ﴿غُرُوبِهَا﴾ إلى التعريف بأل في ﴿ٱلْغُرُوبِ﴾.

أما آية طه فحاصل توجيه الخطيب الإسكافي وأبي جعفر بن الزبير لها أن ﴿غُرُوبِهَا﴾ ليس فاصلة لها، ومع ذلك فهو مناسب لفواصل أكثر آيات السورة والتي اكتنفته أيضاً، لأن مقاطعها؛ أي نهايات فواصلها، ألف مفتوح ما قبلها[2]، نحو:

﴿..... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُولِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾

لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

---

(١) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٩٨.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤٤٨، والبرهان: ٣٣٦ - ٣٣٧، وملاك التأويل: ٢: ٦٨٩ - ٦٩٠، والعقد الجميل: ١٠٨.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٤٤٨، وملاك التأويل: ٢: ٦٩٠.

(٤) درة التنزيل: ٤٤٨، وفي الأصل فواصلها بغير فاء رابطة لجواب "أما"، وفيه أيضاً الجلود بالجيم،

..... وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٢٨ - ١٣١]

فهو شبيه بالفاصلة لجواز الوقف عليه. ومهما يكن من أمر، فإنه غير مردوف، وكذلك الفواصل غير مردوفة.

وأما العدول إلى ﴿ٱلْغُرُوبِ﴾ فلمناسبة الفواصل المردوفة، قال الخطيب الإسكافي: «وأما سورة ق [ففواصلها] مردوفة بواو أو ياء؛ كالسجود و[الخلود] والقعيد والعتيد والمريج، والغروب متى ذكر عُلم أنه غروبها، فكان ذلك أشبه بالفواصل التي تقدمتها»[1]. وذكر أبو جعفر بن الزبير أنه لمناسبة ﴿لُغُوبٌ﴾ الذي هو فاصلة الآية المتقدمة[2]. وأجمل الكرماني القول في أن ذلك التعبير مراعىً به فواصل السورة. وكل ذلك صحيح، بيد أن أصحه وأبينه ما قاله الخطيب الإسكافي، وهو أعمه أيضاً؛ لأن فواصل السورة كلها مردوفة، فمما اكتنف الآية:

﴿. . . . . أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
. . . . . وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾
فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾
وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ الآيات [ق: ٣٧-٤١].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] وفي سورة الكهف ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢] فعُدل عن ﴿كَبِيرًا﴾ إلى ﴿حُسْنًا﴾. وقد بينا وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب الموازنة الإفرادية، وثمة وجه صوتي آخر يتعلق بمراعاة العدول لتناسب الفواصل فيما قبل الروي؛ هذا موضع بيانه.

قال الكرماني: «خُصت هذه السورة بقوله ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾، وخصت سورة الكهف بقوله ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ لأن الأجر في السورتين الجنة، والكبير والحسن معاً من أوصافها، لكن

والصواب ما أثبتناه في الموضعين.

خصت هذه السورة بالكبير موافقة لفواصل الآي قبلها وبعدها، وهي: حصيراً وأليماً وعجولاً، وكلها وقع قبل آخرها مدة. وكذلك في الكهف جاء على ما تقتضيه الآيات قبلها وبعدها، وهي: عِوَجاً، أبداً، وولداً، وكلها قبل آخرها متحرك« [1].

فمدار المتشابهين على معنىً واحد، وبه يتأكد أن العدول لمراعاة المناسبة فيما قبل الروي، ففواصل الإسراء مردوفة، ومما اكتنف الآية من ذلك ما ذكره الكرماني، وهو:

﴿ ..... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

. . وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾

وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

....وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ الآيات [الإسراء: ٨-١١].

أما فواصل آيات الكهف فغير مردوفة، وإنما قبل آخرها متحرك، فمما اكتنف الآية من ذلك ما ذكره الكرماني، وهو:

﴿ .....وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾

...وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾

مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾

وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ الآيات [الكهف: ١ - ٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وفي سورة مريم ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[2] [مريم: ٧٦] فعُدل عن ﴿أَمَلًا﴾ إلى ﴿مَّرَدًّا﴾.

وفواصل سورة الكهف كما تقدم في المثال السابق قبل آخرها متحرك أو اثنان، فجاء التعبير بـ﴿أَمَلًا﴾ في فاصلة الآية مناسباً لما اكتنفها من فواصل، فمن ذلك المكتنف:

﴿ ..... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

..... وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٩٠.

وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ الآيات [الكهف: ٤٥ - ٤٨].

أما فواصل الآيات التي اكتنفت الآية المشابهة في سورة مريم فأكثرها قبل آخره حرف ساكن، فاستدعت مناسبته التعبير بـ ﴿مَرَدًّا﴾، لأن الدال المشددة هي في النطق دال متحركة وقبلها دال ساكنة، قال تعالى:

﴿..... هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾

..... فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

. وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾

أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾

وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ الآيات [مريم: ٧٤ - ٧٩]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحجر ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨] وفي سورة الصافات ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] فعُدل عن ﴿مُّبِينٌ﴾ إلى ﴿ثَاقِبٌ﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للمعنى، وثمة وجه صوتي آخر يتعلق بتناسب الفواصل فيما قبل الروي؛ هذا موضع بيانه.

أما سورة الحجر ففواصلها مردوفة بياء أو واو، كلها كذلك، فناسب التعبير فيها بـ ﴿مبين﴾، ومما اكتنف الآية:

﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾

..... وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

... إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

..... وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾

..... وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ الآيات [الحجر: ١٦ - ٢٠]

وأما آية الصافات فاكتنفتها جملة آيات مؤسسة الفواصل، فاستدعت مناسبتها العدول عما وقع في الحجر إلى التعبير بالفاصلة التي فيها ألف تأسيس ﴿ثاقب﴾، فمن ذلك المكتنف:

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧
. . . . وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨
. . . . . وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩
. . . . . فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠
. . إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات: ٧ - ١١]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة يونس ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾ الآية [يونس: ٤٦] وفي سورة غافر فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[1] [غافر: ٧٧] فعُدل عن الاسم ﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾ إلى الفعل ﴿يُرْجَعُونَ﴾.

أما الاسم في آية يونس فليس فاصلة لها، بل وقع في أثنائها، وهو شبه فاصلة إذا وُقف عليه، وعندئذ يناسب قوله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ الوارد في أثناء الآية السابقة له مناسبة الفواصل الداخلية، قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ
قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝٤٥
وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾ [يونس: ٤٥ -٤٦]

وأما العدول إلى التعبير بالفعل المسند إلى ضمير الجمع الواو في آية غافر فاستدعاه التناسب في ردف الفواصل؛ لأن الآية مكتنفة بآيات كثيرة مردوفة الفواصل بياء أو واو، ومن ذلك:

﴿. . . . . وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥
فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦
فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾

(١) البرهان: ٢٤٩.

. . . . . وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

. . . . . مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الآيات [غافر: ٧٥ - ٧٩]

فلم يكن ليناسب هنا التعبير بالاسم الذي عُبر به في يونس، أي أنه لولا العدول لما تحقق التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة هود ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] وفي سورة النحل ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩] فعُدل عن التعبير بصيغة التفضيل إلى صيغة الفاعل. وقد بينا وجه المناسبة المعنوية لذلك في العدول بمبدلات الصيغة الاشتقاقية، ونبين هنا وجه المناسبة الصوتية المتعلقة بالفواصل ليكون ذلك دليلاً على أن القرآن لا يعدل عن التشابه مراعاة لإحدى المناسبتين دون الأخرى، أي أنه لا يراعي الفواصل إلا وهو يحافظ على صحة المعنى.

ووجه ذلك كما أبدى الخطيب الإسكافي - ونقل عنه الكرماني - أن الفاصلة في آية هود تقدمتها فاصلتان ﴿يُبْصِرُونَ﴾ و ﴿يَفْتَرُونَ﴾ ما قبل الواو والنون فيهما حرفان متحركان لا يعتمدان على ألف قبلهما[1]، قال تعالى:

﴿ ... مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [هود: ٢٠ - ٢٢]

فجاء التعبير بـ ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ هنا مناسباً أتم مناسبة.

أما فاصلة آية النحل فتقدمتها فاصلتان قبل النون والواو فيهما حرفان متحركان مسبوقان بألف، وهما بوزن واحد ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ و﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ كما نبه الخطيب الإسكافي ومن نقل عنه وتابعه[2].

ونبه أبو جعفر بن الزبير على أن فاصلة الآية مسبوقة بفواصل اتفقت في اسم الفاعل المجموع جمعاً سالماً[3]، قال: «فتأمل هذه الفواصل واتفاقها في اسم الفاعل المجموع جمع السلامة في قوم متفقي الأحوال في كفرهم إلى أن ختم وصفهم وما قصد من ذكرهم

(١) انظر: العقد الجميل: ١١٦.
(٢) انظر: السابق: ٩٤.
(٣) انظر: درة التنزيل: ٢١٩ - ٢٢٠، والبرهان: ٢٢٠.

بقوله ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩] فتناسُب الآي في السياق والفواصل، وخُتمت بمثل ما به بدئت، ولم يكن ليناسب ما ورد هنا لفظُ المفاضلة، إذ ليس في الكلام ما يستدعي ذلك؛ لا من لفظه ولا من معناه»[1].

والفواصل التي نبهوا عليها في الآيات :

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

. . . . . وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

. . . . . وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾

. . . . . وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل: ١٠٥-١٠٩]

فمراعاة لهذه المناسبة مع المناسبة المعنوية عُدل عن التشابه.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وفي سورة النحل ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] فعُدل عن التعقيب بـ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إلى التعقيب بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقد بينا وجه المناسبة المعنوية لذلك في العدول بالمبدلات التعقيبية، وههنا وجه صوتي يتعلق بتناسب الفواصل، ويؤكد كما تقدم في المثال السابق أن مراعاة القرآن لتناسب الفواصل في عدوله عن التشابه لا تكون إلا مع مراعاته للتناسب في المعنى.

أما آية إبراهيم فجاءت بين آيات فواصلها مردوفة بالألف، فكان تعقيبها بما عقبت به مناسباً لذلك، فمن تلك الآيات قوله تعالى:

﴿. . . . . مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

. . . . . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾

. . . . . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

(١) انظر: المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة، وانظر أيضاً: الآلوسي، روح المعاني: ١٤: ٢٣٩.

. وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

. . . . . وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣١ - ٣٥]

وأما آية النحل فجاءت بين آيات فواصلها مردوفة بالواو أو الياء - وفواصل السورة كلها كذلك - فاستدعى التناسب في الردف العدول عما عقبت به آية إبراهيم إلى التعقيب بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لأن كلمة الفاصلة فيه مردوفة بالياء، فمن الآيات التي اكتنفت الآية :

﴿. . . . . وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

. . . . . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

. . وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

. . . . . وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

....لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النحل: ١٦ - ٢٠]

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة هذه الصورة من تناسب الفواصل قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وفي سورة طه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾[1] [طه: ١١٦] فعُدل عن زيادة ﴿وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى نقصه من آية طه.

أما آية البقرة فجاءت بين آيات فواصلها مردوفة بالواو أو الميم - وفواصل السورة كلها كذلك أيضاً - فكانت الزيادة فيها مطلوبة، لكي تقع كلمة ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المردوفة بالياء فاصلة فتناسب ما اكتنفها، ومن ذلك المكتنف:

﴿ ....إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

....وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

---

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥١٣.

.....وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

..... وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾[البقرة:٣٢-٣٦]

وأما آية طه فجاءت بين آيات فواصلها غير مردوفة، فاستدعى تحقيق التناسب العدول إلى نقص ﴿وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لتقع كلمة ﴿أَبَىٰ﴾ الخالية من الردف فاصلة، ومن ذلك المكتنف:

﴿.....وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

.....وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾

. . . . . فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾

. . . . . أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾ الآيات [طه: ١١٤ - ١١٨]

فلو عُبر هنا بما عُبر به في آية البقرة لما ناسب، وإنما تحقق التناسب بالعدول.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة طه ﴿ولقد - أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي - فاضرب لهم...﴾ الآية [طه: ٧٧] وفي سورة الشعراء ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[1] [الشعراء: ٥٢] فعُدل عن نقص «إنكم متبعون» إلى زيادته.

ولم يقع قوله ﴿بِعِبَادِى﴾ في آية طه فاصلة، فليس في الآية ما يستدعي الزيادة من جهة تناسب الفواصل.

أما آية الشعراء فجاءت بين آيات فواصلها مردوفة بواو أو ياء - وكل فواصل السورة كذلك أيضاً - فاستدعى التناسب العدول إلى زيادة ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ لتكون فاصلة للآية، وليقع فيها الردف كما وقع فيما اكتنفها، ومن ذلك المكتنف:

﴿.....إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

.....أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

---

(١) السابق، والصفحة نفسها.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾
.....إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ الآيات [الشعراء: ٥٠ - ٥٤]

يتبين بما سبق أن العدول عن التشابه مقصود به تحقيق التناسب في الفواصل؛ في رويها أو فيما قبله - وقد يجتمعان - ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأنسب له من نسق الفواصل التي اكتنفته، ومما يؤكد ذلك القصد أن العدول لم يقع في كلمة الفاصلة دائماً، بل وقع كما مر بنا - ولو على قلة - في التركيب في أثناء الآية بإبدال، أو زيادة أو نقص، أو تقديم أو تأخير، ليؤثر على كلمة الفاصلة ويجعلها مناسبة للفواصل التي اكتنفتها.

وصفوة القول أن القرآن الكريم يعدل عن التشابه لمراعاة التناسب في نظم الألفاظ والأصوات والفواصل بصور متنوعة؛ كالمشاكلة والموافقة والموازنة وغيرها مما سبق بيانه، ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأنسب له من آيته أو سورته. على أن هذه الصور التي هي أوجه من أوجه التناسب الذي يراعيه العدول والتي قد يجتمع بعضها أو كلها في المثال الواحد، لابد أن تقترن بوجه من التناسب المعنوي كما تأكد بكثير من الأمثلة التي مثلنا بها في هذا الفصل وفي سابقه، وبهذا تبلغ مراعاة العدول للتناسب اللفظي والصوتي قمة الإعجاز؛ لأنها تجمع بين حلاوة الإيقاع وحسن البيان والترابط بين أجزاء النص وغيرها، وبذلك تتمكن الكلمة المعدول إليها - وبه يتضح ويثبت تمكن المعدول عنها - تمكناً يدل دلالة قاطعة على أن ذلك التناسب المعجز في النظم مقصود بالعدول قصداً، وعلى أنه لولا العدول لما تحقق التناسب ولا الإعجاز.

الخاتمة

هذا بحث أدرناه على علم من علوم القرآن الكريم وتفسيره؛ علم "المتشابه اللفظي"، علم له أهمية خاصة في الإعجاز البياني، ومكانة متميزة من النظم القرآني، لأنه يقوم أساساً على دراسة الاختلاف ـ وهو ما سميناه عدولاً ـ فيما تشابه من ألفاظ الآيات بالمقارنة بينها؛ ليكشف عن سر التعبير بكل لفظ مما اختلف في موضعه.

وقد جاء البحث في ثلاثة فصول؛ نظري وتطبيقيين، تناول النظري قضايا المتشابه اللفظي، فخصص القضية الأولى لدلالة المصطلح، وعرض فيها دلالة المتشابه في اللغة، ثم دلالة لفظِيِّه في كتب المصطلح، ثم دلالته عند المصنفين فيه، وانتهى إلى أنهم يريدون به كل تكرير لفظي؛ محض متطابق أو غير محض متقارب، بيد أن شرط الثاني عندهم أن يُخشى التباسه على من يحفظ القرآن، وشرط الأول توهّم عدم الفائدة من التكرير، مما يعني أنهم التزموا الدلالة اللغوية للمتشابه التزاماً دقيقاً، من حيث كانت تفرق بين متشابه عام هو المتماثل، وآخر خاص هو المتقارب إلى درجة اللبس. وأظهر البحث قصور الدلالة التي رسمها أهل المصطلح عما هي عليه عند المصنفين، لأن الأولين قيدوا المتشابه بما وقع في القصة الواحدة، وبأن يكون جملة فما فوقها، على حين أوسع المصنفون للمتشابهات الواقعة في القصة وفي غيرها، وتناولوا ما وقع في الجملة وفيما دونها ولو كان كلمة.

وبين البحث أن المصنفين خصوا الجزء المختلف من التكرير غير المحض باسم "العدول" في بعض أمثلتهم، وأنهم عنوا به العدول عن التشابه؛ أي أنهم أرادوا العدول عن التكرير اللفظي المحض أو المتطابق، ولهذا اختار تلك التسمية وعممها في هذه الدراسة.

وخصص القضية الثانية لأنواع المتشابه اللفظي، فعرضها من حيث شدة التشابه ونمطه وعدوله وموضوعه، أما من حيث شدة التشابه فبين أن ثمة نوعين: متشابهاً يعم كل تكرير، ومشتبهاً يختص بالملتبس.

وأما من حيث النمط فبين أن ثمة متشابهات نمطية؛ يكون فيها الجزء المتطابق من التكرير غير المحض أشبه بنمط لفظي، لأنه يعاد بنفسه مرتين أو أكثر، وأخرى غير نمطية. وأن النمط قد يقوى وقد يضعف بحسب مرات التكرير، وقد يكون مفرداً؛ وقد يكون مركباً من عدة أنماط، وقد يطول ويقصر.

وأما من حيث العدول فبيّن أن ثمة متشابهات يقع العدول في طرفها وأخرى في أثنائها، وأنه قد يكون طويلاً وقد يكون قصيراً. وأنه ينقسم من جهة أخرى إلى عدول مُبْدلات؛ تُبدل فيه كلمة في أول المتشابهين بأخرى في ثانيهما، أو حرف في الأول بآخر في الثاني، أو صيغة في الأول بأخرى في الثاني، ونحو ذلك، وإلى عدول زوائد ونواقص، وإلى عدول مقدم ومؤخر. على أن البحث راعى ترتيب المصحف في تعيين العدول ونوعه؛ فإذا كان في ثاني المتشابهين بالنظر إلى ذلك الترتيب نقص مما في الأول كان العدول من النواقص.

وأما من حيث الموضوع فبيّن أن المتشابهات قد تكون قصصية حينما تقع في قصة واحدة أو أكثر، وقد تكون غير قصصية؛ فتقع في موضوع واحد أو أكثر؛ أو في موضوع وقصة.

وخصص البحث القضية الثالثة لأغراض المتشابه اللفظي، ونهج فيها نهجاً مغايراً لنهج القدماء؛ بأن تناولها من جهتي التكرير والعدول، لانفراد كل منهما بأغراض مع اشتراكهما في أخرى، وأجمل الأغراض في التأكيد والترنم من جهة التكرير، والتفنن وزيادة الفائدة من جهة العدول، والتنبيه والتصوير وترابط أجزاء النص من جهة التكرير والعدول معاً. ونبه على أن كلها عام إلا التصوير والترابط، فالأول خاص بالقصة الواحدة المكررة في السور المختلفة، والثاني خاص بالسورة الواحدة.

وقد ركز البحث في أغراض التكرير على المكررات المتباعدة الموزعة على السور، وأولى أهمية خاصة لتطابق المحكيات في القصص المختلفة لعدم تناوله قديماً وحديثاً إلا نادراً، ولأن هذا النوع من المكررات يُشْكل من حيث هو استنطاق أشخاص مختلفين بلفظ واحد، فبين طرافة هذه المكررات في تحقيق تلك الأغراض، وحاول الخروج من إشكالها بما شرح من أغراضها.

وأوضح البحث في أغراض العدول أن في كل عدول تفنناً في طرق الأداء؛ يثبت البلاغة ويدفع الملل ويحقق المتعة، وأن في كل عدول زيادة فائدة؛ تبين المعنى الأصلي أو تتممه؛ كتفصيل المجمل وتخصيص العام ورفع التوهم وغيرها.

وبيّن أن التكرير والعدول يشتركان في التنبيه على أشياء معنوية وفنية، أهمها التناسب المعجز في النظم، وأن جل هذا التنبيه مستفاد من العدول، ولهذا كان جل بحث المتشابه اللفظي دائراً على دراسة ذلك التناسب وإثباته من جهة العدول.

وخصص البحث القضية الرابعة لمصنفات المتشابه اللفظي، فبدأ بمصنفات الجمع وثنّى بمصنفات التوجيه، ودرس بواعث التصنيف في النوعين، وطرائق المصنفات، ومنهج التوجيه. وخلص إلى أن العناية بنوعي التصنيف كانت قليلة، بل لم يتجاوز ما فُقد وطُبع من مصنفات التوجيه الآحاد وكانت هذه متأخرة الظهور قليلة المادة بالقياس إلى مصنفات الجمع في الأغلب، مع أن هذه الأخيرة لم تجمع من المتشابه إلا أقله، إذ إن المتشابهات تقع في ثلث آيات القرآن الكريم.

وبيّن أن التصنيف في النوعين استأثر به القراء أو من كان لهم دراية بالقراءة، وأن مما بعثهم على التصنيف في النوعين التقوية على حفظ القرآن، والرد على الطاعنين فيه، وإثبات التناسب المعجز، إلا أن هذا الباعث الأخير كان خاصاً بمصنفات التوجيه.

وأوضح أن مصنفات الجمع جرت على طريقتين: العقد؛ أي مجرد ضم المتشابهات بعضها إلى بعض، والنظم؛ أي جمعها في منظومات شعرية، وأن هاتين الطريقتين اشتركتا في الترتيب على السور والحروف، على حين استقلت طريقة العقد بالترتيب على الأبواب وبالجمع بين الترتيب على السور والحروف. وبيّن أن مصنفات التوجيه رُتبت على السور، وروعيت فيها طرائق فرعية كالبسط والاختصار وما تعلق بهما. وكان منهجها العام في التوجيه يُراعى فيه إبداء الفرق المعنوي بين المتشابهين في الأغلب، ثم ربط هذا الفرق بالمناسبة النصية كترتيب المصحف ومناسبة السورة والسياق، وهي مناسبة يُبين بها وجه اختصاص كل من اللفظين المعدول عنه وإليه بآيته من حيث لفظه أو معناه.

وأفرد البحث الفصلين الثاني والثالث لدراسة العدول عن التشابه دراسة تطبيقية، فجردناه لأهم أغراضه: إثبات التناسب في النظم، لأن جل البحث في توجيه المتشابه يدور على هذا الغرض.

فدرس في الفصل الثاني العدول عن التشابه اللفظي للتناسب المعنوي، ورتب أمثلته على أنواع العدول الأساسية: المبدلات والزوائد والنواقص والمقدم والمؤخر، وراعى في كل منها تقسيمات فرعية.

ودرس في الفصل الثالث العدول عن التشابه اللفظي للتناسب اللفظي والصوتي، ورتب أمثلته على صور التناسب اللفظي والصوتي التي أبدتها المادة، كتناسب المشاكلة والموافقة ومشاكلة الصوت للصوت والصوت للمعنى وتناسب الموازنة والتناسب في المقدار، وغيرها، وأتبع التناسب اللفظي والصوتي بتناسب الفواصل، وراعى في أثناء تلك الصور ترتيب الأمثلة على أنواع العدول.

وقد أثبت بما مثل به في هذين الفصلين أن العدول عن التشابه مقصود به تحقيق التناسب في النظم على نحو معجز، لأنه روعيت بالعدول مناسبة ترتيب المصحف وسورة كل من المتشابهين وسياقه ونسقه الصوتي، فكانت الكلمة المعدول إليها لا تختلف في بعض المتشابهات عن المعدول عنها إلا في حرف واحد، بل إنها لم تختلف في بعض آخر إلا في حركة واحدة لمناسبة ذلك النسق الصوتي، وبهذا تبين أنه بالعدول حُسب للحركة حسابها كما حسب للمعنى حسابه، لتقع كل كلمة من كلمتي المتشابهين المعدول عنها وإليها موقعها الأخص بها الأنسب لها من آيتها وسورتها، وقد أكد البحث ذلك بما بينه من تعدد أوجه التناسب وتنوعها واجتماع معنويّها ولفظيها وصوتيها في مثال واحد.

وقد ظهرت للبحث نكات، وانكشفت له أسرار، يعز الوقوف عليها في غير بحث العدول عن التشابه، لخصوصيته في التنبيه عليها، وفي دفعه إلى المقارنة بين المتشابهين اللذين هما في مستوىً بياني واحد، وفي كونه يتجاوز التركيز على الجملة كما في كتب البلاغة إلى العناية بكل كلمة وبكل حرف، بل بكل عنصر من عناصر النظم.

ومن هنا أتاح لنا البحث مجالاً للاجتهاد، ولا سيما في الفصل الثالث، مما يسمح بادعاء الجدة في بعض جوانب التطبيق. ويمكن ادعاؤها أيضاً فيما حاولته الدراسة النظرية من توضيح قضايا المتشابه وتفصيل القول فيها وحل بعض إشكالاتها. بل يمكن أن ندعيها على وجه العموم في إخراج بحث في علم من علوم القرآن وتفسيره علم المتشابه اللفظي، وفي تجلية مسألة من أبرز مسائل النظم القرآني، ومن أدلها على إعجازه البياني.